توجيهات
في العمل والاهتمام بالمسؤولية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع القانونى:
الترقيم الدولى:

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

توجيهات ومواقف
في العدل والاهتمام بالمسؤولية

إعـداد
الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الحكم بالعدل من أهم أسباب استقرار الأمن والسعادة فى المجتمعات البشرية، فإنه بالعدل يحصل الحكام على قناعة الشعوب بهم ورضاهم عنهم وإن شذَّ عن ذلك مرضى القلوب من أصحاب المصالح الشخصية، فإن الحاكم العادل يحصل بعَدله على سمعة كبيرة وشعبية عالية لدى القطاع الأكبر من الشعب، وبالتالى فإن أصحاب المصالح الذاتية ينزوون ويبتعدون عن الأنظار خوفًا من مصادمة اتجاه القطاع الأكبر من الشعب.

وبالعدل فى حياة الأسر تكون التربية السليمة والبعد عن الشذوذ التربوى، وبالعدل فى قطاع المسئوليات الإدارية تحصل الطمأنينة ويكون الإنجاز أكبر والإنتاج أعظم.

ولقد كان تاريخ سلفنا الصالح عامرًا بالأمثلة الرائعة على العدل وتحمل المسئولية فى جميع المجالات السياسية والقضائية والإدارية، وهذه الأخبار التى ستعرض فى هذا الكتاب ما هى إلا نماذج مما حفل به تاريخ أمتنا من الروائع فى مجالى العدل وتحمّل المسئولية.

***

من توجيهات رسول الله ﷺ

لقد رويت عن رسول الله ﷺ توجيهات كريمة نحو العدل والاهتمام بالمسؤولية.

ومن أهم ما جاء فى ذلك من الأحاديث ما أخرجه الشيخان من حديث عبدالله ابن عمر رضى الله عنهما قال: «**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية فى بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1].

ففى هذا الحديث بيان شمولية المسؤولية لكل أفراد المسلمين البالغين سن الرشد، وهذا التفصيل الذي جاء في هذا الحديث فيه بلاغة في التعبير وبراعة في توزيع المسؤولية، بحيث يشعر كل مسؤول نُوِّه بذكره بمسؤوليته، لأن توزيع المسؤولية إلى فئات معينة يُشعر أفراد كل فئة بمسؤوليتهم بخصوصهم، ولو ذُكرت المسؤولية على سبيل العموم لم يكن هناك شعور بها لدى أفراد كل تلك الفئات، لأن كل فئة تعتقد أن المسؤولية في غيرها إلا فيما اشتُهر فيه المسؤولية عن الرعية وهم الولاة.

وقد بدأ النبي ﷺ بذكر مسؤولية الأمراء، وذلك يشمل الخليفة الذي يحكم المسلمين، كما أنه يشمل جميع الولاة الذين هم تابعون له أو مستقلون بحكم بعض البلاد، فهم جميعًا مسؤولون عن رعاياهم، وذلك بإقامة العدل فيهم ورعاية مصالحهم والحفاظ على أمنهم وحمايتهم من أعدائهم، والنظر الحكيم لمستقبلهم وإقامة شريعة الله تعالى فيهم، وغير ذلك مما فيه إعزاز الدين وسعادة الرعية، فإذا فعلوا ذلك فازوا بما وعدهم الله سبحانه بمثل ما جاء فى قول النبى ﷺ «**سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل**» الحديث، أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة رضي الله عنه[2].

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٧١٣٨، كتاب الأحكام، باب ١ (١٣/ ١١١) صحيح مسلم، رقم ١٨٢٩، كتاب الإمارة، باب ٥ (ص ١٤٥٩).

(٢) صحيح البخاري، رقم ١٤٢٣، كتاب الزكاة (٣/ ٢٩٢)، صحيح مسلم، رقم ١٠٣١، كتاب الزكاة (ص٧١٥).

وقـوله ﷺ: «**إن المقـسـطين عند الله على منابـر من نور عن يمين الرحـمن، الذين يعدلون في حكمهـم وأهليهم وماولوا**» أخرجه مسلم من حـديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما[1].

وقوله «**والرجل راع في أهله وهو مـسؤول عن رعيـته**»، يبين مسـؤولية الأب عن أسرته، فهـو مسؤول عن تربية أفـراد أسرته على تعظيم الدين والاستقـامة عليه، والدعوةُ إلى ذلـك فرض على صاحب الأسـرة، ولا يكون لدعوته أثـر ولا فائدة حتى يـستقـيم على هذا الدين، ولذلك فـإنه يجب على الإنسان أن يحـافظ على الدين أولا، وأن يدعو أفراد أسرته إلى ذلك، وأن يلزمهم بتطبيق الإسلام بالموعظة والحكمة، وهو مسـؤول عن تعليم أبنائه وبناته، كما أنه مـسؤول عن الإنفاق على أسرته في حدود استطاعته، إلى غير ذلك من الأحكام والآداب الأسرية.

وقوله «**والمرأة راعية فى بيت زوجها وهي مـسؤولة عن رعيتها**» بيان لمسؤولية المرأة في بيتـها، فالمرأة تـشارك زوجهـا في تربية الأولاد وتعليمـهم والقيـام بشؤونهم، وتأخذ مسؤولية أكبر في رعاية وتربية الأطفال والعناية بهم.

وهكذا شمل هذا الحديث قطـاعات من المجتمع في بيان تحـمل المسؤولية، من أعلى رجل في دولة الإسلام وهو الخليفة إلى أدنى رجل وهو العبد المملوك، حيث حمَّله النبى ﷺ المسؤولية في مال سيده.

وإنَّ من أهم الأمـور التي تقي المسلم من الخطأ أثناء تحـمل المسؤوليـة أن يكون دائما مستشعرًا رقابة الله عـز وجل، فيعمل بما يرضيه وإن سخط عليه الناس، وأن يجعل ابتغاء مرضاته واجتناب سخطه هو الحاكم على جميع تصرفاته.

فإذا وافق رضا الناس رضا الله تعالى فذلك خير وفضل من الله جل وعلا، سواء كان هؤلاء الناس من المسـؤولين أو من المراجعين، وفي هذه الحال لا يشعـر الإنسان بضغط المسؤولية وتشعُّب الفكر، ولكن يقل توافر ذلك إلا في المجتمعات الفاضلة.

أما إذا خالف رضا الناس رضا الله تعالى فإن المسؤول يعيش مرحلة من التفكير المتواصل الذي قد يصـل فى البداية إلى حد الإرهاق، ولكن حينمـا يتغلب جانب

(١) صحيح مسلم، رقم ١٨٢٧ (ص١٤٥٨).

الإيمان بالله جل وعلا في قلبه فإن ذلك يهيمن على مشاعره وتفكيره، وبالتالي يحكم تصوره وسلوكه، فلا يفكر إلا فيما يرضي الله تعالى، ولا يعمل إلا بما يرضيه، وفى هذه الحال يتجرد القلب لتوحيد الله عز وجل، وتضمحل شيئًا فشيئًا دسائس الشرك المتمثل في تسرب القوى البشرية إلى قلب المؤمن.

فإذا تغلب اعتبار هذه القوى البشرية على القلب فإنها تزاحم وجود الإيمان بالله تعالى في هذا القلب، فتطغى على التفكير وتهيمن على المشاعر، وبالتالي تظهر تصرفات صاحب هذا القلب منسجمة مع ما يرضى الناس ومناقضة لما يرضى الله عز وجل، ويكون الإنسان بهذا قد دخل فى أنواع من الشرك الأصغر.

وإنَّ الذي يكون قلبه موزعًا بين محاولة العمل على رضوان الله تعالى واجتناب سخطه وبين محاولة كسب رضا الناس فيما يجلب عليه من سخط الله سبحانه يعيش في قلق وإرهاق نفسي، ولا يستريح حتى يغلب عليه اعتبار أحد الجانبين، فإن غلب عليه الإيمان بالله تعالى فأصبح يطلب رضوانه وإن سخط عليه الناس فإن الله سبحانه يغمره بالطمأنينة والسكينة، ويشعر براحة نفسية عالية، ويعطف عليه قلوب الناس، كما جاء في قول رسول الله ﷺ: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس**»[1].

والناس الذين يُعتدُّ برضاهم وسخطهم هم أصحاب العقول السليمة الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح.

ومع هذا فإن الذي يثبت دائمًا على الصراط المستقيم يكون مقدرا ومهيبا حتى عند المنحرفين الذين لم يلتزموا بهذا الطريق.

وإن غلب عليه النظر إلى رضا الناس حتى لو خالف رضا الله جل وعلا فإنه يستريح قليلا من التفكير والقلق، ولكنه يتجرع الألم بعد ذلك إن كان له قلب فيه بقية من إيمان مع ما ينتظره من الحساب يوم القيامة.

وهذه أمثلة أخرى من عدله ﷺ، فمن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث عبد الله بن أبي حدرد الأسلمى رضي الله عنه أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم، فاستعدى عليه، فقال: يا محمد إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى

(١) سنن الترمذي، رقم ٢٤١٤، كتاب الزهد، باب ٦٤ (٤/٦٠٩).

عليهـا، قال: **أعطه حـقه**، قال: والذى بعـثك بالحق ما أقدر عليهـا، قال: **أعطه حقه**، قال: والذي نفـسي بيده ما أقدر عليـها، قد أخبـرته أنك تبعثنا إلى خـيبر فأرجو أن تغنمنا شيئا فـأرجع فأقضيه، قال: **أعطه حقه**، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثا لم يراجع، فـخرج ابن أبي حـدرد إلى السوق وعلى رأسه عـصابة وهو متَّـزر ببُردَة، فنزع العمامـة عن رأسه فاتَّزر بهـا ونزع البردة فقال: اشـتر مني هذه البردة، فباعـها منه بأربعة دراهم، فمرَّتْ عجوز فقـالت: مالك يا صاحب رسول الله ﷺ؟ فأخبرها فقالت: هادونك هذا البُرْد لبُردٍ عليها طرحته عليه[1].

فهذا حكم ظاهر من رسول الله ﷺ بالعدل مع أن المدعي يهودي وقد ذكر المدعى عليه وهو عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه الإعسار وطلب الإمهال حتى يرجعوا من خيبر، ومع ذلك فإن النبى ﷺ أمره بأداء الحق ولم يأمر اليهودي بإمهاله.

فأين مـفكرو الأمم الذين يدَّعون بأنهم هم أهل العـدالة ليروا أحكام النبى ﷺ الكثيـرة العادلة، وذلك ليـعلموا أنهم إنما اقـتبسـوا ما عندهم من العـدالة من أمة الإسلام التي تأست برسولها ﷺ؟!

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن ماجـة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبى ﷺ يتقاضاه دينا كـان عليه، فاشتد عليه حتى قال له: أحرِّج عليك إلاّ قضـيتنى، فانتهره أصحـابه وقالوا: ويحك تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي، فقال النبى ﷺ «**هلا مع صاحب الحق كنتم؟**» ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فـقال لها: «**إن كان عندك تمر فـأقرضينا حـتى يأتينا تمرنا فنقـضيك**» فقالت: نعم بأبي أنت يا رسـول الله، قال: فأقرضَتْه، فقـضى الأعرابى وأطعمه، فقال: أوفـيتَ أوفى الله لك، فقال: «**أولئك خيـار الناس إنه لا قُدِّسَتْ أمـة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع**» وقال البوصيري: إسناده صحيح[2].

فهـذا حديث عظيم يبين اتصـاف النبي ﷺ بأعلى درجات التـواضع والعدالة، فعلى الرغم من سوء أدب ذلك الأعرابي فإن رسول الله ﷺ لم يغضب عليه، بل أنكر على الصحابة رضي الله عنهم حينمـا انتهروا ذلك الأعرابي وأرشدهم إلى أن

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والرجال ٣/ ١٨١.

(٢) سنن ابن ماجـة، رقم ٢٤٢٦، كتـاب الصدقـات (٢/ ٨١٠) وأخرج آخر الحـديث الحافظ الطبـراني من حديث معاوية رضي الله عنه، ذكره الحافظ الهيثمي وقال: ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٩-.

يكونوا مع صاحب الحق الذي يطلب حقه وإن أساء الأدب، ولم يطلب من ذلك الأعرابي أن يمهله، بل اقترض من تلك الصحابية ما أدى به ذلك الدين.

ولقد توَّج النبي ﷺ ذلك الدرس العملي البليغ بهذا التوجيه العالى «**إنه لا قُدِّستْ أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع**» حيث أفاد بأنه من حق صاحب الحق أن يأخذ حقه من غير أن يُمنع ولا أن توضع في طريقه العوائق، وأن الأمة التي يحال فيها بين صاحب الحق والحصول على حقه بسهولة وراحة أمة لا تستحق التقديس والاحترام.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ الطبراني من حديث خولة بنت قيس امرأة حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنها قالت: كان على رسول الله ﷺ وسق من تمر لرجل من بني ساعدة، فأتاه يقتضيه، فأمر رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار أن يقضيه، فقضاه تمرا دون تمره فأبى أن يقبله، فقال: أترد على رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ، فاكتحلَتْ عينا رسول الله ﷺ بدموعه، ثم قال: **صدق، ومن أحق بالعدل مني؟ لا قدَّس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شد يدها ولا يتعتعه**، ثم قال: **يا خولة عُدِّيه واقضيه، فإنه ليس من غريم يخرج من عند غريمه راضيا إلا صلت عليه دواب الأرض ونون البحار، وليس من عبد يلوي غريمه وهو يجد إلا كتب الله عليه في كل يوم وليلة إثما**.

ذكره الحافظ المنذري وقال: إسناده جيد[1].

صلى الله عليك يا رسول الله، يا أرحم الناس وأعدلهم، يا من تدمع عيناه يوم أن شاهد ذلك الموقف المؤثر من رجل يطلب الكمال في حقه، وآخر يريد أن يتوصل بما لرسول الله ﷺ من حق عظيم وتقدير بالغ إلى أن يهضم ذلك الرجل حقه الكامل، فأنكر ﷺ ذلك وأمر بأن يُقضَى حقه كاملا، وأتحف أمته بتوجيهها نحو الكمال الذي تحوز به القداسة، وذلك بأن يُؤخذ لضعيفها الحق من قويها، كما ذكَّر الغرماء بالسعي نحو إرضاء غرمائهم ليحوزوا على دعاء دواب الأرض وحيتان البحار، وحذر من مماطلة الغرماء لأصحاب الحقوق، وذلك ببيان أن المماطل يُكسب نفسه الإثم الذى يُكتب عليه كل يوم وليلة.

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/ ٢٧٠.

من مواقف الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

موقفه في تقرير العدل وإزالة الظلم:

أخرج محمد بن إسحاق من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في بيان بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة قال: فتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله[1].

وذكره الحافظ ابن كثير وقال: وهذا إسناد صحيح[2].

فقد استفتح أبو بكر الصديق رضى الله عنه خلافته بهذه الخطبة البليغة الجامعة التي قرر فيها موازين العدالة والرحمة بين الحاكم والمحكوم، وقد ضمَّن هذه الخطبة عزمه على قطع أهم أسباب الظلم وهو تسلط الكبار والأقوياء على الصغار الضعفاء، فالقوي الذي اعتز بماله وشرفه ومنصبه فجعل من ذلك وسيلة لظلم الضعفاء المغمورين وأخْذ حقوقهم يصبح في نظر أبي بكر وسياسته ضعيفًا مسلوب القوة مجردا من أسباب التعاظم حتى يؤدي حقوق الناس، وإن النظر إلى الكبراء المتغطرسين بنظرة الاستخفاف والإذلال تجعلهم يتجردون من سلاحهم الذي استعزوا به على الضعفاء، وإذا بطل مفعول هذا السلاح فإنهم سرعان ما يخضعون للعدل ويؤدون ما جحدوه من حقوق الآخرين.

أما الضعيف الفقير المستذل فإنه في نظر أبي بكر وسياسته قوي حتى يأخذ حقه له، وإن الذي يحول بين الضعيف ومحاولة المطالبة بحقه هو ما يتوالى عليه من معاملات الإهانة والإذلال من الكبراء، فهو مايزال يتلقى الإهانات النفسية منهم حتى يصل إلى مرحلة اليأس من حصوله على حقه، فإذا رأى من الحاكم إعزازا له

(١) سيرة ابن هشام ٤/٤٥٦.

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٥ - ٣٠٦.

واعتـرافا بحـقه في المطالبـة وتسهـيلا لسـبل الوصول إلى أخـذ حقه فـإنه ينهض للمطالبة بحقه قويا غير مبال بغطرسة الكبراء وتعاظمهم.

فبهذا كانت هذه الخطبة تحقيـقا للتوازن بين سلوكيات أفراد المسلمين وتقريبا بين طبقات المجتمع، وإزالة للفجوة التي تفصل بين الأقوياء والضعفاء وضمانا لوصول الحقوق إلى أصحابها.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ البيهـقى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنهم قام يوم جمعة فـقال: إذا كان بالغداة فاحضروا صدقات الإبل نقـسم، ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن، فقالت امرأة لزوجـها: خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جـملا، فـأتى الرجل فوجـد أبا بكر وعمـر رضي الله عنهما قد دخلا إلى الإبل فدخل معهـما، فالتفت أبو بكر فقال: ما أدخلك علينا؟ ثم أخذ منه الخطام فـضربه، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعـا بالرجل فأعطاه الخطام وقال: اسـتقد، فقـال له عمر: والله لا يستـقيد، لا تجعلهـا سنة، قال أبو بكر: فمن لي من الله يوم القيامة؟ فقال عمر: أرْضِهْ، فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة وخمسة دنانير فأرضاه بها[1].

فـهذا مـثل من عدل أبي بكر الصـديق رضي الله عنه، حـيث طلب من ذلك الرجل أن يضـربه بـالخطام بدلا من ضـربه إياه، مع أن ذلـك الرجل قـد ارتكب مخالفةً سبق التحذير منها فاستحق العقوبة على ذلك، ومع هذا فإن أبا بكر خشي من القصـاص يوم القيـامة، حيث سـيكون بالحسنات بدلا من الضـرب، فأراد أن يمكِّن ذلك الرجل من ضـربه، فكان في رأي عـمـر مخـرج من ذلك، حـيث تم إرضاء ذلك الرجل فحصل له أكثر مما كان يؤمل من تلك الصدقات.

وهذا الذي جرى من أبي بكر نوع نادر من الإحـساس مبعثـه تضخم النظر إلى الآخرة إلى جانب ضآلة النظر إلى الدنيا، وهذا الميزان الدقيق هو الذي يبعث على العدل والتواضع والرحمة وسائر مكارم الأخلاق.

***

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٣/ ١٢٧.

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

اهتمامه بالمسؤولية:

أخرج الحافظ الطبرانى من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: إن أمير المؤمنين بعثني إليكم أعلمكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، وأنظف لكم طرقكم.

ذكره الحافظ الهيثمى وقال: ورجاله رجال الصحيح[1].

ففي هذا الخبر بيان لبعض مهام الولاة وواجباتهم، فمن مهام الوالي القيام بتعليم الناس أمور دينهم حتى يعبدوا الله على بصيرة، وحتى يفهموا أحكام الإسلام في المعاملة بين المسلمين وفيما بينهم وبين أهل الذمة والأعداء، وبهذا الفهم يستطيع المسلمون أن يستقيموا في حياتهم وأن يحققوا السعادة لمجتمعهم، وليس معنى هذا أن الوالي يباشر بنفسه تعليم جميع المسلمين في ولايته، وإنما يكلف أهل العلم بالقيام بذلك ويكون مشرفًا عليهم وموجهًا لهم، وهذا يعني أن يكون الوالي من أهل الفقه بالكتاب والسنة، وهذا هو الأمر الموافق للحكمة، لأن مهمة الوالي الكبرى هي الإشراف على تطبيق الإسلام في الأرض، فإذا لم يكن فقيها في الدين فكيف يشرف على تطبيقه؟!

ومن منطلق هذا التوجيه باهتمام الولاة بتعليم أمور الدين يتبين لنا أنه في حال تطبيق ذلك لا يبقى من المسلمين من يجهل أمور دينه لأن الاهتمام بذلك موجه من أعلى سلطة في البلاد، والناس -عادة- يهتمون بما يهتم به ولاتهم.

وحينما تولى على المسلمين ولاة -على مر العصور- لا يحسبون ذلك أوْ لا يطبقونه تأخر المسلمون في المجال العلمي، وبالتالي تأخروا في المجال الحضاري، لأن تقدم المسلمين في العمران والحضارة مرتبط بمدى فهمهم للإسلام وتطبيقه.

وفي قوله «وأنظف طرقكم» لفتة إلى مسؤوليه الوالي عن الحياة المدنية لرعيته، فهو مسؤول عن تنظيم البلاد وتحسينها ورعاية مصالح الناس فيها، وهذا جزء من تعاليم الدين لأن الإسلام يأمر بالنظافة ورعاية مصالح الناس ومنع الضرر عنهم.

---

(١) مجمع الزوائد ٥/٢١٣.

ومن أخبار اهتمام أمير المؤمنين عمـر رضي الله عنه بالمسؤولية ما أخرجه الحافظ أبو نعيم من خبر الإمام الأوزاعى: أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خرج في سواد الليل فرآه طلحة، فذهب عمر فدخـل بيتا ثم دخل بيتا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البـيت فإذا بعجـوز عميـاء مقعـدة، فقال لهـا: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتـعاهدني منذ كذا كذا يأتـيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى[1].

سبحان الله! هل كان عمر وهو خليفة المسلمين يشعر بأنه مسؤول عن تلك المرأة المقعدة التي لا عائل لها؟ نعم كان يشـعر بذلك وأن عليه أن يقوم بشأنها أو يرتب لها من يفعل ذلك، ولعله فـعل ذلك حتى وجد من يقوم بهذا الأمـر، وإن حاكما على الإمة الإسلامـية كلها يشعر بمسؤوليـته عن امرأة مقعدة لهو أحـرى بأن يشعر بأمور الأمة الكبـيرة، وهكذا أخرج الإسلام رجالا عظماء لا تشغـلهم كبار الأمور عن صغارها، بل يأخذ كل أمر من أمور الأمة حظه من الاهتمام والتقدير.

ومن ذلك ما أخـرجه الحافظ البـيهقى وابن عسـاكر من خبـر الإمام طاوس بن كيسان رحمه الله: أن عمر رضي الله عنه قال: أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما علي؟ قالوا: نعم، قال: لا، حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا؟[2].

وهذا من كمـال العدل، لأن المرحلة الأولى مـن العدل والنجاح فـي العمل أن يسند المسؤول أعمـاله إلى أهل الكفاية الذين يجمعون بين الأمانـة والخبرة والقوة، وأما المرحلة الثـانية فهي أن يراقبـهم في أعمالهم بحكمة وروية حـتى يطمئن إلى أنهم قد قاموا بأعمالهم بإتقان وسداد، وهذا هو ما أشار إليه أمير المؤمنين عمر في هذه الكلمات.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ البيهقى من خبـر أبي عثمان النهدي قال: استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجـلا من بني أسد على عمل فجاء يأخـذ عهده،

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٤٨.

(٢) كنز العمال ٣/ ١٦٥.

قال: فأتى عمر رضي الله عنه ببعض ولده فـقبله، قال: أتقبل هذا؟ ما قبلت ولدا قط، فقال عمر: فأنت بالناس أقل رحمة هات عهدنا لا تعمل لي عملا أبدا[1].

فهذا استدلال جيد من أمـير المؤمنين عمر، فإن أقرب الناس إلى الإنسان أولاده ووالداه، فإذا قلَّت رحمته بأولاده أو بوالديه فـإن ذلك دليل على قسوة قلبه، ومن كان كذلك فإنه لا يصلح للولايه، لأن أهم مقومات العدل الاتصاف بالرحمة.

اهتمامه بأهل الذمة:

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكـر في عدة طرق من خبر سويد بن غفلة قـال: كنا مع عمـر بن الخطاب وهو أمـير المؤمنين بالـشام فـأتاه نبطي مضـروب مشجوج يستـعدي فغضب غضبًا شديدًا فقال لـصهيب: من صاحب هذا؟ فانطلق صهيب فإذا عوف بن مالك الأشجعي، فقال له: إن أمير المؤمنين قد غضب غضبًا شديدًا فلو أتيت مـعاذ بن جبل فمـشى معك إلى أمير المؤمنين فـإنى أخاف عليك بادرته، فجاء معه معاذ، فلما انصرف عمر من الصلاة قال: أين صهيب؟ قال: أنا هذا يا أمير المؤمنين، قال: أجئت بالرجل الذي ضربه؟ قـال: نعم، فقام إليه معاذ ابن جبل فقال له: يا أمير المؤمنين إنه عوف بن مالك فاسمع منه ولا تعجل عليه، فقال له عمـر: مالك ولهذا؟ قال (يعني عوف): يا أميـر المؤمنين رأيته يسوق امرأة مسلمة فنخس الحمـار ليصرعها فلم تصرع، ثم دفعـها فخرَّت عن الحمار فغـشيها ففعـلت ما ترى، قال: ائتني بالمرأة لتصـدقك، فأتى عوف المرأة فذكـر الذي قاله عمر، فقال أبوها وزوجها: ما أردت إلى صاحـبتنا قد فضحتنا فقالت المرأة: والله لأذهبن معه إلى أمـير المومنين، فلما أجمعتْ على ذلك قـال أبوها وزوجها: نحن نبلِّغ عنك أمير المؤمنين، فأتيا فصدقا عوف بن مالك بما قال، فقال عمر لليهودي: والله ما على هذا عـاهدناكم، فأمـر به فصُلِب، ثم قـال: يا أيها الناس فُـوا بذمة محمد ﷺ «يعني بأهل الذمة» فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له.

قال سويد بن غفلة: فإنه لأول مصلوب رأيته[2].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٤١ - ٤٢.

(٢) تاريخ دمشق ٤٧/ ٥٠ - ٥١.

وذكره الحافظ الهيثمى مختصراً من رواية الحافظ الطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح[1].

وهكذا غضب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه غضبًا شديداً من أجل رجل يهودي، وهذا بحد ذاته سمو في العدل والإنصاف، وإن ما سبق ذلك من مقدرة ذلك اليهودي على الوصول إلى عمر بتلك السرعة والسهولة وسماعه منه دعواه يدل على المستوى الرفيع الذى بلغ إليه المجتمع الإسلامي في ذلك العهد من الحرية والعدالة والسرعة الفائقة في الحكم بين الناس والبتِّ في القضايا والمنازعات.

ولئن كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أخذته الرحمة بذلك اليهودى وغضب من أجله ذلك الغضب الشديد ولمَّا يعرف جريمته فإنه هو الذى أوقع به تلك العقوبة المغلظة لما علم بجرمه الشنيع، وهكذا ضرب عمر مثلين فى دقائق معدودات للاتصاف بالرحمة فى أسمى معانيها وبالقوة فى أبلغ صورها.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظان ابن منده وأبو نعيم من خبر عبد الملك بن يعلى الليثى أن بكر بن شداخ الليثى رضي الله عنه - وكان ممن يخدم النبى ﷺ وهو غلام - لما احتلم جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى كنت أدخل على أهلك وقد بلغت مبلغ الرجال، فقال النبى ﷺ: **اللهم صدِّق قوله ولَقِّه الظفر**، فلما كان فى ولاية عمر رضي الله عنه وُجد يهودى قتيلاً فأعظم ذلك عمر وجزع وصعد المنبر فقال: أفيما ولانى الله واستخلفنى يُفتك بالرجال، أُذَكِّر الله رجلاً كان عنده علم إلا أعلمنى، فقام إليه بكر بن شداخ فقال: أنا به، فقال: الله أكبر بُؤْتَ بدمه فهات المخرج، فقال: بلى، خرج فلان غازيًا ووكلنى بأهله، فجئت فوجدت هذا اليهودى فى منزله وهو يقول:

وأشعث غرَّه الإسلام مني ... خلوتُ بعرسه ليل التمام

أبيت على ترائبها ويمسي ... على جرداء لاحقة الحزام

كأن مجامع الرَّبلات منها ... فئام ينهضون إلى فئام

فصدَّق عمر رضي الله عنه قوله، وأبطل دمه بدعاء النبى ﷺ[2].

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٣.

(٢) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٧/ ١٣.

وهذا مثل آخر من اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأهل الذمة وغضبه لهم واتجاهه نحو العدالة فيما بينهم وبين المسلمين.

وموقف غيرة وشهامة من ذلك الشاب بكر بن شداخ الليثي رضي الله عنه، حيث أنقذ تلك المرأة المسلمة من ذلك اليهودي، وحفظ على زوجها المسلم الغازى أهله.

وأخيراً موقف آخر لأمير المؤمنين عمر حينما تذكَّر دعاء النبي ﷺ المذكور وعمل به في ذلك الموقف الحرج، وهذا مثل من علمه الغزير واهتمامه الكبير بتطبيق كلام النبى ﷺ.

وأخرج الإمام الطبرى من طريق سيف بن عمر التميمي عن شيوخه قالوا: وكتب عمر إلى عتبة[1]: أن أَوْفِدْ عليَّ وفداً من صلحاء جند البصرة عشرة، فوفد إلى عمر عشرة فيهم الأحنف[2]، فلما قدم على عمر قال: إنك عندي مصدَّق وقد رأيتك رجلاً فأخبرني أأَن ظُلمت الذمة؟[3] ألمظلمة نفروا أم لغير ذلك؟ قال: لا، بل لغير مظلمة، والناس على ما تحب، قال: فنعم إذاً.

وهذا مثل من أمثلة اهتمام عمر رضي الله عنه بالعدل ومتابعة ولاته والسؤال عنهم حتى لا يقع ظلم على أيديهم أو أيدي من يولونهم.

وإذا كان أهل الذمة قد حَظُوا باهتمام عمر وعدله فكيف بالمسلمين؟! إنه يشعر بمسئووليته عما يجري في أي جزء من بلاد الله ولو كان نائيًا ولا يكتفي بالتحري الشديد في اختيار الولاة ثم إلقاء المسؤولية عليهم، ولذلك كان لا يشعر بالراحة إلا إذا سأل الناس على مختلف طبقاتهم حتى يتأكد من إقرار العدل والقيام بأمور الدين.

ومن أجل ذلك كتب إلى عتبة بن غزوان كما جاء في هذه الرواية يقول: أن اعْزُب الناس عن الظلم، واتقوا واحذروا أن يُدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدَّم إليكم فيما أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونًا وناصراً[4].

(١) يعني ابن غزوان عامله على البصرة.
(٢) هو الأحنف بن قيس التميمي.
(٣) يعني أهل الذمة.
(٤) تاريخ الطبري ٤/٧٨.

ففى هذا تأكيد من أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه على ولاته بلزوم جانب العدل، وحمل الناس عليه، وهو إدراك منه لأهمية إقرار العدل في ثبات الهيمنة للمسلمين على أعدائهم، واستقرار أمورهم.

وفيه تنفير من الغدر وتأكيد الالتزام بالوفاء بالعهود وعدم الاغترار بقوة جيوش المسلمين وتوالي انتصاراتهم، فإنهم إنما أُديلوا على أعدائهم بعدلهم ووفائهم، فإذا جاروا وخانوا العهد لم يكونوا جديرين بنصر الله تعالى.

وقوله «فإنما أدركتم بالله ما أدركتم» تأكيد منه استحضار عظمة الله جل وعلا، وأن كل ما يوفَّق المسلم إليه في حياته من الخير فإنه من الله وبالله تعالى، فَلْيُلازم المسلم ذكره جل وعلا وَلْيَفِ بالعهد الذي عاهد ربه عليه من تنفيذ شريعته وإخلاص العمل له؛ يكن الله دائمًا معه، ومن كان الله معه فلن يُخْذَل ولن يُذال عليه، وهذا المعنى واضح في قول الله تبارك وتعالى ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: ٥٥].

وإنما تصاب الأمة الإسلامية بما تصاب به؛ لغفلة أفرادها عن ذكر الله تعالى وعدم استحضار عظمته وأنه بيده مقاليد الأمور كلها، فيتضخم في أعينهم حجم القُوَى المادية، وتتشكل تصوراتهم للنصر والهزيمة والنجاح والإخفاق على ضوء تعظيمهم للأمور المادية وتقلُّص استحضارهم معية الله تعالى ورقابته عليهم وعلى أعدائهم.

هذا وقد جاء في الرواية السابقة أن عمر رضي الله عنه بعدما سأل الأحنف عن العدل مع أهل الذمة قال: انصرفوا إلى رحالكم، فانصرف الوفد إلى رحالهم، فنظر في ثيابهم فوجد ثوبًا قد خرج طرفه من عيبة فشمَّه، ثم قال: لمن هذا الثوب منكم؟ قال الأحنف: لي، قال: فبكم أخذته؟ فذكر ثمنًا يسيرًا. ثمانية أو نحوها، ونقص مما كان أخذه به - وكان قد أخذه باثنى عشر - قال: فهلا بدون هذا ووضعت فضلته موضعًا تُغني به مسلمًا ! حُصُّوا وضعوا الفضول مواضعها تربحوا أنفسكم وأموالكم، ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم، إن نظر امرؤ لنفسه وقدَّم لها يُخْلَف له.

وهذا مثل من أمثلة حياة الزهد والقناعة التي حمل عمر نفسه عليها بأشد صورها، وأراد أن يحمل الناس على ما استطاع منها وقاية لهم من حياة السرف والبذخ التي لها نتائجها المعروفة، من ضياع الأفراد والأمم في الدنيا وخسارتها في الآخرة.

وفي قوله «ووَضَعْتَ فضلته موضعًا تُغني به مسلمًا» إشارة إلى أن إغناء المسلمين إلى حد الاكتفاء بالنسبة للضروريات مقدَّم على تمتع الإنسان بأمور الكماليات، وأنه مطلوب منه أن يقتصد بشراء الأدنى من الملابس والمراكب وجميع متاع الحياة ليؤَمِّن بما بقي ما يكفي لإنقاذ أُسَرٍ من الفقر والحاجة.

وقوله «حُصُّوا وضعوا الفضول مواضعها» يعني اجعلوا أموالكم حصصًا يكون منها للضروريات ويكون منها للحاجيات ويكون منها فضول تستغنون عنها، وضعوا هذه الفضول مواضعها من الإنفاق في سبيل الله تعالى. وفي قوله «تربحوا أنفسكم وأموالكم» إشارة إلى أن الربح والفلاح لدى المسلم العاقل ليس في تمتيع الأجسام بألوان المتع وإنما يكون بمقدار انتصار الإنسان على مطالب جسمه وادِّخار الفضول من المال لتقديمها أعمالاً صالحة تُدَّخر لصاحبها يوم القيامة، فمن اقتصد في إنفاقه رَبح نفسه حيث يقودها إلى الفلاح، وربح ماله لأنه لم يستهلكه كله فيما يعود عليه في الدنيا، وإنما حوَّله إلى عمل صالح بإنفاقه في سبيل الله تعالى فربح ماله، أما إذا أسرف فإنه يكون قد خسر نفسه حيث متَّعها بمتاع عاجل مؤقت، على حساب العمل الصالح الذى ينفعها في يوم آجل خالد، وخسر ماله لأنه استهلكه في عائد نفعه قليل محدود، ولم يقدِّمه ليوم خالد تُضاعف فيه حسنات الأعمال أضعافًا كثيرة، فهو خاسر في ماله ولو كان ناجحًا في التجارة، لأنه في تجارته ينظر لمواقع الربح والخسارة في الدنيا، ولو فكر في الآخرة لعلم أنه هو الخاسر وأن الصالحين المنفقين من أموالهم في سبيل الله تعالى هم الرابحون المفلحون.

وهذا لا يعني أن المسلم يزهد في طلب المال، بل المطلوب منه أن يعمل بطاقته في عمران الأرض، ولكن من منطلق تحرير الكسب أولاً، بأن يكون حلالا، ومن منطلق إخلاص النية وتصحيحها ثانيًا، وذلك بأن يكون هدفه من جمع المال أن يحصل على أكبر قدر من الكسب الذي يصرفه في الإنفاق في سبيل الله تعالى،

بعد تغطيـة ضروراته واحتـياجاته، مع الالتزام بـالقصد، فإذا فـعل ذلك أُجِر أوَّلاً على تنقيـة ماله من الكسب الحرام، وأُجِرَ ثانيًـا على النية الصالحة التي بيَّـتها وهو يجمع ذلك المال، وأُجِرَ ثـالثًا على العمل الصالح الذي اجتـمع له بسبب هذا المال الذي أنفقه في سبيل الله تعالى.

محاسبته سعد بن أبي وقاص في بناء بيت له:

لقـد كان أمـيـر المؤمنين عمـر بن الخطاب رضي الله عنه يـحرص دائمًـا على محاسبة ولاته وتفقد أمورهم، فـقد أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أن سـعد بن أبي وقاص لما بنى له بيتًا في الكوفـة ادَّعى الناس عليه ما لم يقل، وقالوا: قال سـعد: سَكِّن عني الصُّوَيْت[1]، وبلغ ذلك عمر وأن الناس يسمونه قصر سعد، فدعا محمـد بن مسلمة فسرَّحه إلى الكوفة، وقال: اعْمِدْ إلى القصـر حتى تُحـرق بابه، ثم ارجع عَوْدك على بَدْئك، فخـرج حتى قـدم الكوفة فاشترى حطبًا، ثم أتى به القـصر، فأحرق الباب وأُتِيَ سعد فأُخبـر الخبر، فقال: هذا رسول أُرسل لهذا الشـأن، وبعث لينظر مَنْ هو، فإذا هو محمـد بن مسلمة، فأرسل إليـه رسولان بأن: ادْخل، فأَبَى، فخـرج إليه سعد، فـأراده على الدخول والنزول فأَبى، وعرض عليـه نفقة فلم يأخذ، ودفع كتاب عمـر إلى سعد: بلغنى أنك بنيت قصـرًا اتخذته حصنًا، ويسمـى قصر سعـد، وجعلت بينك وبين الناس بابا، فليس بقـصرك ولكنه قـصر الخـبـال، انزل منه منزلاً مما يلى بيوت الأمـوال وأغلقـه[2] ولا تجـعل على القـصـر بابا تمنع الناس من دخـوله وتنفـيـهم به عن حقوقهم، ليـوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت، فـحلف له سعد ما قال الذي قالوا.

ورجع محـمد بن مـسلمة من فوره، حـتى إذا دنا من المدينة فني زاده، فـتبلغ بلحاء من لحاء الشجر، فـقدم على عمر وقد سنق[3]، فأخبره خـبره كله، فقال: هلا قبلت من سعـد! فقال: لو أردت ذلك كتبت لي به، أو أذنت لي فـيه، فقال

(١) يعني أنه أمر بوضع باب لبيته ليمنع وصول صوت غوغاء الناس وهم في أسواقهم.
(٢) هكذا جاء في رواية الطبري ولعله وأغلقها يعني بيوت المال، لأنه قد نهاه أن يجعل لمنزله بابًا.
(٣) يعني ظهر عليه أثر الجوع والتعب.

عمر: إن أكمل الرجال رأيًا من إذا لم يكن عنده عهـد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل، وأخبره بيمين سعد وقـوله، فصدَّق سعدًا وقال: هو أصدق ممن روى عليه ومن أبلغنى[1].

هذا وإن من أبرز مـا نلاحظه في هذا الخبـر اهتمـام عمـر رضي الله عنه بأداء الحقـوق لأصحابها، وتمكين أصـحاب الحقوق من طلب حـقهم من غير حـواجز تمنعهم أو تضعف من شخصيتهم، فإذا شعر صاحب الحق والحاجة بأن المسؤول قد فتح بابه لسماع تظلم أصحاب الحق وعرفوا بأن حقهم سيصل إليهم من غير مشقة ولا ضياع وقت طويل أو نفقة تفوق الحد الضروري المعتاد فإنهم يُقدمون على رفع حوائجهم وطلب حقـوقهم أما إذا كان الأمر بضد ذلك فإن الإنسان قـد يترك حقه تفاديًا لهذه العوائق المرهقة.

فلذلك وغـيره اهتم عـمر رضي الله عنه بمحـاسبـة ولاته، ووضع الضمـانات الكافية لوصول أصحاب الحقوق والحاجات للمسؤولين دون مشقة أو عوائق.

ولاشك أن توافر هذه الضمانات التي تكفل راحة أصحاب الحقوق والحاجات، وسرعـة وصولهم إلى مطلوبهم، حـتى لو كانوا من غيـر المسلمين.. لا شك أن ذلك يُعدُّ مجالاً مهما من مجالات الدعوة الإسلامية، سواء في تثبيت وتقوية إيمان المسلمين، أو باجتذاب غير المسلمين إلى الإسلام.

هذا ومن المقطوع به أن سعدًا رضي الله عنه لم يحـتجب عن الناس ولم يُقصِّر في أداء حقوقهم والعدل بينهم، ولم يتهمه عمر رضي الله عنه بذلك، ولكن عمر كان يراعي تثبيت قواعـد عامة لتقرير العدل وتيسير حصـول أصحاب الحقوق على حقـوقهم، وإذا كـان سعد لم يُـردْ ما خافـه عمـر حين أغلق باب بيتـه، فإن من سيأتون بعـد سعد لا يؤمن عليهم أن يحـتجبوا عن الناس، وأن يعوقـوا أصحاب الحقوق والحاجات عن بلوغ مرادهم، فكان تـصرف عمر بهذه الشدة في إنكار هذه الأمر مقـصودًا به إبلاغ جميع المسـؤولين المعاصرين له، ومن سيـأتون من بعده بما يقتضيه عليهم واجب المسؤولية في الدين.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٧.

أما بالنسبة للفُـرْس فإن هذا الحدث يُعدُّ أمرًا عظيمًا عندهم، فـإن الأمر بتحريق باب قصـر متواضع مـن أجل حماية حـقوق عامـة الناس يُعدُّ نوعًـا من الأحلام الخياليـة، حيث قد أَلِفَت أنظارهم منظر القـصور الضخمة ذات الأبـواب الحصينة والحرس المدججـين بالسلاح والمظاهر الدنيوية الخلاَّبة، وكلهـا تكسر من شخـصية العامة وتحـرمهم من مجرد المطالبـة بحقوقهم، فهـذا الحدث لاشك أن له أثرًا في اجتذاب الأعاجم للإسلام وإعجابهم بالمسلمين.

هذا ومما نستفيده من مناقشة عمر مع محمد بن مسلمة بعد عودته من مهمته أن الإنسان إذا كُلّف بمهمة فإنه يعمل بوصيـة من كلَّفه، فإذا عرض له أمر لم يكن فيه رأي لمن كلفه فإنه ينبغي له أن يتصرف فيه بالحكمـة والحزم، فمحمد بن مسلمة لم يأمره عمر بأن يأخذ نفقةً من سعد ولم ينهـه عن ذلك، فاجتهد محمد بموجب ما تقتضيه طاعة ولي الأمر فلم يقبل النفـقة من سعد، ولكن الحزم يقتضي بأن يتزود منه بما يكفيه في سفره خشية أن يتعرض للهلاك.

والحكمة تقتضي أن يـدخل بيت سعد تطييبًا لخاطره، وحـفاظًا على مكانته بين المسلمين وهو المسؤول عنـهم، ولكنه اجتهد فـرأى أن ما قام به من ضـمن العمل بوصية أمـير المؤمنين، ولا شك أن الطاعة من أهم الأمـور التي تعين على النجاح في المسؤوليـة، ولكنها مـقيدة بالحكـمة والحزم، وذلك بالنظر إلى المحـافظة على جوهر القضية التي كُلِّف بها الإنسان، ثم النظر بعد ذلك بما تقتضيه المصلحة العامة والخاصة.

وفي هذا المعنى قال له عـمر: إن أكمل الرجال رأيًا من إذا لم يكن عـنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به.

جوابه لمن أمره بالتقوى:

أخرج المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبـر الحسن بن أبي الحسن البصري قال قال رجل لـعمر رضي الله عـنه: اتق الله يا أميـر المؤمنين، فو الله مـا الأمر كـما قلت: قال: فأقبلوا على الرجل فقالوا: لا تَأْلِت[1] أمير المؤمنين، فلما رآهم أقبلوا

(١) أي لا تنتقص.

على الرجل قال: دعـوهم فلا خير فـيهم إذا لم يقولوها لنا، ولا خيـر فينا إذا لم تُقَل لنا[1].

فهـذه كلمة عـظيمـة من أمير المـؤمنين عمـر رضي الله عنه قرر فـيهـا وجوب التناصح بين الحاكم والمحكومين، فـلا خير في شُعوب تداهن فـي دينها ولا تقول كلمة الحق، ولا خير في ولاة يخشاهم الناس ولا يتجرؤون على أن يقولوها لهم، وإذا كانت هذه الكلمة قد قيلت لأبي العدل أمير المؤمنين عمر فكيف يستعظم أحد أن تقال لمن هم دونه في ذلك بمراحل؟!

تحاكمه مع أَبَيّ بن كعب إلى زيد بن ثابت:

ومن ذلك ما أخرجه أيضًا أبو زيد عمر بن شبة من خبر عامر الشعبي قال: كان بين عمر وأُبَيّ بن كـعب رضي الله عنهما خصـومة، فجعلا بينهـما زيد بن ثابت رضي الله عنه، فأتيـاه فضربا الباب فـخرج إليهـما فقال: ألا أرسلتَ إليّ يا أمـير المؤمنين؟ فقال: في بيـته يُؤتَى الحَكَم، فدخلا فقـال: في الرحب والسعة، وألقى وسادة، فـقال - يعني أمـير المؤمنـين -: هذا أول جورك، فتـكلما فـقال لأبَيّ: بيِّنتك، وإن رأيت أن تُعـفي أمير المـؤمنين من اليمين فافـعل، فقـال أبيّ: نعفـيه ونصدقه، فقال عمر رضي الله عنه: أيُقْضَى عليّ باليمين ثم لا أحلف؟! فحلف، فلما وجبت له الأرض وهبها لأُبي[2].

فهذا مثل عظيم في العدل، حيث يـجلس أمير المؤمين عمر رضي الله عنه أمام القاضي ليحكم بينه وبين أحد أفراد رعيته ويأتي بنفسه إلى بيت القاضي الذي كان - آنذاك - هو المحكمة، حـيث كان القضـاة يحكمون في بيوتهم أو في المسـاجد ونحو ذلك.

وحينما ألقى القاضي لأمير المؤمنين الوسـادة أنكر عليه ووصفه بالظلم حيث لم يُسَوِّ بينه وبين خصمه، وفي هذا تثبيت لقاعدة من أهم قواعد العدل في الحكم.

وكان زيد بـن ثابت رضي الله عنه الذي ارتضاه أمـير المؤمنين للحكم فـي غاية الأدب وتقـدير أهل الفضـل، حيث عـرض على أُبَيّ بن كـعب رضي الله عنه أن

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٧٢.
(٢) تاريخ المدينة المنورة / ٧٥٥ .

يعفي أمير المؤمنين من الحلف، كما أن أُبَيًّا كان قمة في الأدب وحسن الخلق، حيث أعفى أمير المؤمنين من الحلف وصدَّقه، ولكن عمر لم يرض بذلك بل أمضى ما حكم به القاضي، وقد بلغ درجة عالية في العفو والإحسان حينما تجاوز عن ذلك ووهب الأرض لأُبَيّ بن كعب.

وإننا لنجد في هذه القضية مثلاً عاليًا من أخلاق الصحابة رضي الله عنهم، لقد جرت هذه القضية بين أعلى رجل في الدولة وبين رجل من سادة المسلمين وعلمائهم، وهذا يبين لنا أن وقوع الخلاف بين المسلمين وتحاكُمهم إلى القاضي الشرعي لا يُعدُّ عيبًا ولا منقصة، ماداموا محتفظين بأخوتهم الدينية وأخلاقهم الإسلامية، وإنما العيب والنقص فيما يقع بين ضعفاء الإيمان من السب والشتم والتهاجر والمخادعات بسبب وقوع الخلاف بينهم، فهذا يُعدُّ من الانحطاط الخلقي، بينما نجد الصحابة رضي الله عنهم قد بلغوا درجة عالية من الرقي الأخلاقي، حيث لم يُفسد الخلاف أخلاقهم، ولم يقطع حبل الوصل بينهم.

إعلانه الاستعداد لإنصاف الرعية من الأمراء:

أخرج المورخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر أبي فراس قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني لم أبعث عمَّالي عليكم ليصيبوا من أشعاركم ولا أبشاركم ولا أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم، ويقسموا فيئكم، فمن فُعل به غير ذلك فليقُم فو الله لأُقصَّنَّه منه، فقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: يا أمير المؤمنين إن كان رجل على رعية يؤدب بعض رعيته إنك لتُقصَّه منه؟ فقال: أنا لا أُقصُّه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ أَقصَّ منه نفسه! ثم قال: ألا لا تضربوا المسلمين فتذلُّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم، ولا تجمِّروهم في البعوث فتفتنوهم، ولا تُنزلوهم الغياض فتضيِّعوهم[1]. وأخرج ابن سعد نحوه من خبر عطاء[2].

ففى هذا الخبر مثل من عدل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وتحرِّيه في رفع الظلم عن أفراد رعيته، وقوله «والله لأقصنَّه منه» محمول على وجود الظلم من

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨٠٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٣.

الوالي وتجاوزه حدود الاعتدال، أما إذا كان هناك تجاوز من بعض أفراد الرعية فإنه يجوز للوالي أن يؤدبهم في حدود الاعتدال.

وفي قوله «لا تضربوا المسلمين فتذلوهم» تنبُّه منه إلى أهمية رفع معنوية المسلمين وتقوية شخصياتهم، ليكون عطاؤهم لدينهم وأمتهم كبيرًا، وإرشاد منه إلى تحاشي إذلالهم لأن المسلم إذا شعر بالذلة ضعف وانزوى، وأصبح يعطي بجهد قليل.

وقوله «ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم» يفيد بأنه يجب أن تبقى الصلة بين الوالي والرعية قائمة على المودة والاحترام بين الطرفين، وذلك مبني على الرحمة والعدل من الوالي، والشكر والاعتراف بالفضل من الرعية، ومن الأمور المهمة التي تعكر على هذه الصلة وتضعفها أن يمنع الوالي حقوق الرعية فيحملهم على كفر النعمة ونكرانها بدلاً من شكرها، وفي مقابل التقصير الحاضر قد ينسى الأفراد الإنعام السابق، وإذا ضعفت الثقة بين الوالي والرعية اختلَّت حياة الأمن وضعفت أسباب السعادة والرخاء.

وقوله «ولا تجمِّروهم في البعوث فتفتنوهم» يعني ولا تطيلوا مدة غياب الجنود عن أهاليهم فتفتنوهم عن دينهم، وفي هذا توجيه إلى لزوم المحافظة على مستوى الإيمان والاستقامة عند المسلمين، وأنه لا يجوز للولاة أن يعرِّضوهم للفتن التي تُضعف من تمسكهم بدينهم.

وقوله «ولاتنزلوهم الغياض فتضيِّعوهم» الغياض هي مجتمع الشجر في مغيض الماء، وإذا نزل الجيش فيها تفرقوا فيسهل على الأعداء تصيدهم، فلذلك نهى أمير المؤمنين عن ذلك حتى لا يتعرض أفراد الجيش لسهام الأعداء.

اهتمامه بحراسة المسلمين في الليل:

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في مجال تفقد أحوال المسلمين ما أخرجه الإمام الطبرى من طريق بكر بن عبد الله المزني قال: جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه، فجاءت المرأة ففتحته، ثم قالت له: لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي، فلم يدخل حتى جلست، ثم قالت:

ادخل، فدخل ثم قال: هل من شيء؟ فأتته بطعام فأكل، وعبد الرحمن قائم يصلي، فقال له: تجوز أيها الرجل[1]، فسلم عبد الرحمن حينئذ، ثم أقبل عليه فقال: ما جاء بك هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟ فقال: رُفْقَةٌ نزلتْ في ناحية السوق خشيت عليهم سرّاق المدينة، فانطلقْ نحرسهم، فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز من الأرض يتحدثان. فَرُفع لهما مصباح، فقال عمر: ألم أنه عن المصابيح بعد النوم! فانطلقا فإذا هم قوم على شراب لهم، فقال: انطلق فقد عرفته، فلما أصبح أرسل إليه فقال: يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب؟ قال: وعلمك يا أمير المؤمنين؟ قال: شيء شهدته، قال: أو لم ينهك الله عن التجسس؟! قال: فتجاوز عنه.

قال بكر بن عبد الله المزني: وإنما نهى عمر عن المصابيح لأن الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فيحترق وكان إذ ذاك سقف البيت من الجريد[2].

نجد في هذا الخبر فهم عمر العميق لمجالات العبادة وتقديم الأهم على المهم. فحينما كان بعض المسلمين بحاجة إلى عمر وعبد الرحمن بن عوف كان أمر احتياجهم مقدمًا على صلاة النفل، فالصلاة عبادة، وخدمة المسلمين أيضًا عبادة، ومادامت الصلاة نفلاً فإن ما نزل من حاجة المسلمين مقدم على ذلك، لأن الصلاة عبادة يقتصر نفعها على صاحبها، وخدمة المسلمين عبادة يتعدى نفعها للمسلمين.

ولقد كان هذا الأمر واضحًا لدى الصحابة رضي الله عنهم ولذلك لم ينكر عبدالرحمن على عمر أن أمره بتخفيف الصلاة وإنهائها من أجل المشاركة في خدمة المسلمين، ولم ير أن غيرهما من صغار المسلمين أولى بالقيام بهذه المهمة لأنهم كانوا ينظرون إلى هذا الأمر من خلال كونه عبادةً وعملاً صالحًا، فهو أمر يتنافسون عليه، ولا يكلونه إلى غيرهم، لأنهم يرون أنفسهم أحوج إلى الأجر من غيرهم، وإن لهم في ذلك أسوة حسنة برسول الله ﷺ الذي قال لمن عرض عليه أن يستريح في السفر «**ما أنت بأقوى مني ولا أنا بأغنى منك عن الأجر**» وقد كان النبي ﷺ أراد جمع الحطب لرفقته.

---

(١) يعني خفف صلاتك.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٥.

ونجد في هذا الخبر مثلا مهمًا للوقوف عند كتاب الله تعالى، فلقد كان عمر رضي الله عنه مُقْدِمًا على التحقيق في أمر أولئك الذين اجتمعوا على الشراب، ولكن حينما ذكَّره أحدهم بقوله تعالى ﴿**ولا تجسسوا**﴾ تجاوز عنهم، فلم يكمل التحقيق في الأمر لكون الاشتباه في أمرهم نتج عن التجسس عليهم، وهو أمر منهي عنه.

وتجاوز عمر عنهم محمول على عدم ثبوت ما يوجب إقامة الحد عليهم.

وقد ذكر القرطبي رحمه الله نحوًا من هذه الرواية وفيها أن عمر لما دنا من البيت المذكور قال له عبد الرحمن بن عوف أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى ﴿**ولا تجسسوا**﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم[1].

هذا وإذا كان الله جل وعلا قد نهى عن التجسس حتى في معرفة المخالفات التي في إزالتها صلاح المجتمع، فكيف بمن يتجسسون على المسلمين في خاصة أمرهم، وينقلون كلامهم من غير معرفتهم؟!

وكما كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عميق الشعور بالمسؤولية نحو المسلمين في أرواحهم وأمنهم، فإنه كذلك في الاهتمام بحفظ أموالهم وتنميتها.

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قدمت رفقةٌ من التجار فنزلوا المُصَلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرُسَهم الليلة من السّرَق؟ فباتا يحرسانهم ويصليّان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاءَ صبيّ فتوجّه نحوه فقال لأمه: اتّقي الله وأحْسِني إلى صبيّك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ثم عاد إلى مكانه، فلما كان في آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك، إني لأراك أمّ سوءٍ، مالي أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أبْرمْتَني منذ الليلة، إني أريغُه عن الفطام فيأبَى، قال: ولِمَ؟ قالت: لأن عمر لا يفرضُ إلا للفُطُم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: ويحك لا تُعْجليه! فصلى الفجر وما يَستبينُ

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٣٣٣.

الناسُ قراءتـه من غلبة البكاء، فلمّـا سلّم قال: يا بؤسًـا لعمر كـم قتل من أولاد المسلمين! ثم أمَرَ مناديًا فنادى: ألا لا تُعْجلِوا صبيانكم عن الفطام فإنّا نفرض لكلّ مـولود في الإسـلام. وكـتب بذلك إلى الآفـاق: إنّا نفـرض لـكل مـولود في الإسلام[1].

فهذا مثل من قيام أمير المؤمـنين عمر رضي الله عنه بمسؤوليته الكاملة في رعاية أفراد أمـته وحمايتـهم، ولقد كان بإمكانه أن يوكل بالحـراسة أفرادًا يقومـون بهذه المهمة، ولكنه يريد أن يجعل من نفسه مثلاً عاليًا لأمرائه في أنحاء الأرض، فحينما يسمعون هذا الخبر يتحمسون لأداء مسـؤوليتهم، ويجافيهم النوم ليقوموا بالإشراف على أعمالهم.

وفي آخر الخبر موقف عظيم لأمير المؤمنين عمـر في الشعور بالمسؤولية والخشية من الله جل وعلا، حـيث تمخض هذا الخبـر عن تغيـير نظام من أنظمـة العطاء، فـصار عـمر يفـرض لكل مـولود في الإسلام، حـتى لا تعـجل الأمهـات بفطام أولادهن فيتضرروا بذلك، ومع أنه مجتهد في النظام الأول ولم يظلم الرعية بذلك حيث إن الرضيع لا يـحتاج إلى طعام وبالتالي فـإنه لا يحتاج إلى نفقـة فإن سوء الرعاية من بعض الأمهات جعل عمر يُحمِّـل نفسه مسؤولية كل ضرر يحصل على أولاد المسلمين، وهذا من أعلى مـا يتصور من الشـعور بالمسؤوليـة، ولقد بلغ من تأثره بهذه الحادثة أن غلبه البكاء حتى وهو يصلي الفجر بالمسلمين.

فأي وجدان كان ينطوي عليه قلب عمر!!

وأي إحساس كان يعمر فكره الحي المتوقد!!

مثل من تفقده أحوال المسلمين في الليل:

كان عمر رضي الله عنه يتفقد أحوال المسلمين في الليل كعادته، عله يجد أناسًا منقطعين في سـفرهم فـيسـعفـهم، أو يجـد أمورًا تخـالف الدين أو تخل بالأمن فيزيلها.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠١.

وهذه المهمة الشاقة كان يمكن أن يوكل بها عمر من يقوم بها من أفراد رعيته الذين هم أطوع له من بنانه، ولكنه كان شديد الخشية من الله تعالى وعظيم التقدير للمسؤولية، وقد حمله ذلك على أن يباشر هذا الأمر الشاق بنفسه خشية أن لا يبلغ غيره مبلغ ما يريد من الاطمئنان التام على أحوال المسلمين.

وقد رُويت عن عمر في ذلك أخبار مهمة منها ما أخرجه الإمام الطبري من طريق زيد بن أسلم عن أبيه أسلم العدوي مولى عمر قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رحمه الله إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث، فقال: يا أسلم، إني أرى هؤلاء ركبًا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان وقدر منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون - يعني يتضورون جوعًا - فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء - وكره أن يقول يا أصحاب النار - قالت: وعليك السلام، قال: أأدنو؟ قالت: أدن بخير أوْ دَعْ، فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال: وأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر، قال: أي رحمك الله ما يدري عمرَ بكم! قالت: يتولى أمرنا ويغفل عنا! فأقبل عليّ فقال: انطلق بنا.

وهذا مثل عظيم من تواضع عمر رضي الله عنه واهتمامه بخدمة المسلمين حيث عرج على تلك النار التي رآها رجاء أن يقدم خدمة لأصحابها في تلك الليلة الباردة.

وكان الواقع أعظم مما تصور عمر حيث شاهد واقع تلك المرأة وأبنائها، وكان منظرًا يبعث على الحزن والرحمة لأقسى الناس فضلاً عن أمير المؤمنين عمر الذي يخشى الله تعالى في عثرة بهيمة في أقصى البلاد.

وكان موقفًا ساميًا من عمر حينما شكته تلك المرأة إلى الله تعالى حيث أشفق على نفسه من تلك الشكوى فقال: أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟ وإنما قال ذلك لعله يخفف من موجدتها عليه فيكون ذلك شافعًا له عند الله تعالى الذي نصب أمام عينيه دائمًا خشيته والوجل منه، ولكن تلك المرأة ردت بما يزيد من

إشفـاق عمر وخوفـه حيث قالت: يتـولى أمرنا ويغفل عنا! ولم تَعُـدْ لغة الكلام مجدية في ذلك المـوقف وإنما كان الموقف يستدعى الإسـراع في نجدة تلك الأسرة المنكوبة، وهذا ما فعله عمر.

يقول أسلم: فخرجنا نهـرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيـه كبة شحم فقال: احـمله عليَّ فقلت: أنا أحمله عنك، فقال: احـمله علي، مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك أقول: أنا أحمله عنك فقال لي في آخر ذلك: أنت تحمل عني وزري يوم القيـامة لا أم لك، قلت لا، فحـملته عليه، فـانطلق وانطلقت معه نهـرول حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها.

وهكذا يبلغ تصور عمـر لمستقبله الأخروي، ويبني عليه سلوكـه الدنيوي، فهو أولاً يهرول ولا يمشي مشيًا، ثم هو يصرُّ على حمل الكيس الكبير على ظهره اتقاء ما يخشاه من الحساب يوم القيامة على ما ظن أنه تقصير منه في أمور الرعية.

ولم يكن مركزه الكبير الذي أهَّله لأن يكون أعظم رجل في العالم آنذاك.. لم يكن ليحـول بينه وبين أن يجعل من نفـسه عامـلاً متواضـعًا يحـمل الأثقال على ظهره.

إنه مظهر من مظاهر العظمة والجلال، تفتخر به الأمة الإسلامية عبر الأجيال.

إنه واقع مدهش وسلوك محـير، أن يتنازل أعظم رجل في العالم ليقـوم بمهمة الحمالين البسطاء.

ولكن الذي يحل اللغز ويزيل الحيرة والدهشة قول عمر «أنت تحمل عني وزري يوم القيامة!»، إنه كلما عظمت الآخرة في عـين المسلم صغرت في عينه الدنيا وما فيـها، ومن ثَمَّ يـأتي بالعجـائب من السلوك العالي الذي يظل أمـامه أهل الدنـيا خاشعين حائرين..

إن مفتـاح شخصيـة العباد في هذه الحـياة الدنيا هو مقـدار نظرهم إلى الآخرة ووزنها فـي تفكيرهم، فـإن كانت الآخرة هي الـتي تتمثّـل أمام خيـالهم عند كل سلوك يقومون به في هذه الحياة الدنيا فإنهم يعيشون سعداء ويُسعد الله بهم الأمة، ويصلح بهم ما اعـوج من سلوكها، ويأمنون بإذن الله تعـالى من الوقوع في الزلل

والمهالك، أما إن كانوا من طلاب الحياة الدنيا بما فيها من مال وجاه فالويل لهؤلاء ولمن كانوا تحتهم من الرعيه، والخراب والدمار هو الذي يتوقع من خلال سلوكهم.

إلى أن قال أسلم: وقام - يعني عمر - وقمت معه فجعلَتْ - يعني المرأة - تقول: جزاك الله خيرًا أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيرًا، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله!

لقد غمر المعروف والإحسان تلك المرأة حتى عقدت مقارنة بين هذا المحسن الكبير وبين أمير المؤمنين، لما استقر في الأذهان بأن الإمام الذي استرعاه الله جل وعلا أمر الأمة مسؤول عن كل فرد من أفرادها، ولم تكن تدري أن الذي تخاطبه هو أمير المؤمنين، وما كان يدور في خلدها أن الله سبحانه قد ساقه إليها ليقضي أمرين كل واحد منهما بالغ الأهمية: أمر إنقاذ تلك المرأة وأبنائها من الجوع، وأمر إنقاذ أمير المؤمنين من الإخلال بالمسؤولية فيما لا يعلم، وأمر ثالث لا يقل عنهما، وهو أن يسطر التاريخ هذه الحادثة المهمة بمداد الفخار والعز الذي يرفع رؤوس المسلمين أمام العالم، وينشئ الأجيال المتعاقبة على القدوة الحسنى والتربية الفاضلة.

وبعد ذلك هل اكتفى أمير المؤمنين بما قدم لتلك المرأة وأولادها من خدمات جليلة؟! يقول أسلم: ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع، فجعلت أقول له: إن لك شأنًا غير هذا، وهو لا يكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون، ثم ناموا وهدؤوا، فقام وهو يحمد الله، ثم أقبل علي فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم[1].

الله أكبر ما أعظمك يا عمر! وما ألطف مشاعرك وأحاسيسك! إن عمر العظيم لم يشغله تأمين المواد المادية عن ملاحظة النواحي المعنوية، لقد كان رأى الصبية وهم يبكون ويتضاغون من الجوع، وهو منظر مؤلم لأصحاب النفوس الأبية، وإذا كان عمر قد ملأ بطونهم بالطعام فإن هول المنظر السابق لا يزال يعمل عمله في

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٥، وانظر تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٥٣.

حسه المرهف، ونفسه الجياشة، فأحب أن يمحو هذا المنظر برؤية الأطفال وقد بدت عليهم مظاهر الفرح والسرور.

هذا ومما تجدر الإشارة إليه، الإشادة بجرأة أمير المؤمنين عمر الخارقة وإيمانه الراسخ بقضاء الله تعالى وقدره، حيث كان يخرج ليلاً وليس معه حرس والمسلمون في حال حرب ضروس شاملة مع أعدائهم في الشرق والغرب، وفي المدينة عدد كبير من الأعاجم الذين فتحت بلدانهم، وأزيلت ممالكهم أو أضعفت على يد المسلمين، ومع ذلك يخرج خارج المدينة وليس معه إلا مولاه أو أحد أصحابه، ولا شك أن هذا يُعدُّ مثلاً عاليًا للشجاعة النادرة والإيمان القوي واليقين الراسخ.

طلبه من سعد أن يقتص منه:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من حديث الإمام الطبراني بإسناده عن سعيد ابن المسيب قال: خرجت جارية لسعد [يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه] يقال لها: زبراء، وعليها قميص جديد فكشفتها الريح، فشد عليها عمر بالدرة، وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة، فذهب سعد يدعو على عمر، فناوله الدرة وقال: اقتص مني فعفا عن عمر(١).

فهذان مثلان من مكارم الأخلاق يطبقهما عظيمان من عظماء الصحابة رضي الله عنهم، فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تناول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالعصا في ساعة غضب بسبب تلك الجارية التي لم تلتزم بالاحتشام، وسعد أقدم على الدعاء على عمر في ساعة غضب مما حدث، لكن أمير المؤمنين ندم على ما كان منه نحوه فأعطاه العصا ليقتص منه، حتى يخرج من دنياه ولم يحمل حقًا لمسلم، فهل يفعل سعد ذلك؟!

إنه لا يمكن أن يقدم على ضرب أمير المؤمنين، ويكفيه نبلا وتواضعًا من أمير المؤمنين أنه أعطاه العصا ليقتص منه، فكان العفو من سعد، واطمأنت نفس عمر حينما عفا عنه أخوّه سعد رضي الله عنهما.

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٧٦، وأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن المسيب - منتخب كنز العمال ٥/ ٧١-.

محاسبته أهله وأبناءه:

من ذلك ما أخـرجه الحافظ ابن عـساكر من خبـر عبد الله بن عـمر رضي الله عنهما قـال: اشتريت إبلا وارتجعتـها إلى الحمَى، فلما سمنَتْ قـدمت بها، قال: فدخل عمر بن الخطاب السوقَ فرأى إبلاً سمانًا، فقال: لمن هذه؟ قيل لعبد الله بن عمر، قـال: فجعل يقول: يا عـبد الله بن عمر بخٍ بخٍ، ابن أمـير المؤمنين، قال: فجـئتـه أسعى، فقـلت: مالك يا أميـر المؤمنين؟ قال: مـا هذه الإبل؟ قلت: أنا اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون، قال فقال: ارعوا إبل ابن أميـر المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمـير المؤمنين، يا عَـبْد الله بن عمـر اغد على رأس مالك واجعل باقيه في بيت مال المسلمين[1].

فهذا الخبر يدل على ورع أميـر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهو لا يريد أن يسـتفيـد أولاده من جاه الخلافـة ويرى أن ما اسـتفادوه مـن مال من هذا الطريق فالمسلمون أحق به.

وقد دفع هذا الورع أمير المؤمنين عمر إلى أن يوازن بين مصلحة الأمة ومصلحة ابنه عبد الله، ولما كان هـناك احتمال أن يهتم الرعاة بإبل عبـد الله لكونه ابن أمير المؤمنين فإنه قـد جعل لبيت مال المسلـمين نصيبًا من تلك الإبل، وهذا سـموٌّ فى العدل والشعور بالمسؤولية.

هذا وإن دقة هذه الملاحـظة من أمير المؤمنين عـمر قـد ظهرت من حسـاسيـته الشديدة من وقوع الظلم ورغبته الأكيدة فى تحقيق العدل، ونظرًا لغلبة هذا التفكير عنده فـإنه قد تكـوَّن عنده إحسـاس دقـيق نحو إدراك جـوانب الظلم الخـفيـة أو المحـتملة، بينمـا ينظر عمـوم الناس إلى هذه القـضايا نظرةً عـابرة ولا يشعـرون باحتمال وقوع الظلم وإن كانوا على درجة عاليـة من التقوى كما هو الحال فى عبد الله بن عمر، فهـذا الإحساس الشديد من أمير المؤمنين عمر نحـو حماية الأمة من الظلم جعله ينظر إلى الأمور نـظرات فاحصة ليدرك ما وراء الوقـائع، وكلما ركز الإنسان تفكيره فى شىء أدرك منه ما لا يدركه الناس بنظراتهم العابرة، إضافةً إلى أن الله جل وعلا يوفق عبده الذى يتجه بتفكيـره العميق نحو تحقيق العدل إلى دقة الإحساس وإدراك الملابسات الخفية للوقائع.

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣٢٦ - ٣٢٧.

ومن ذلك ما أخـرجه الحافظ ابن عسـاكر من خبر زيد بن أسلم عن أبـيه قال: رأيت عبـد الله بن الأرقم صاحب بيت مال المسلمين في زمن أبي بكر وعـمر أتى عـمر فـقال: يا أمـير المؤمـنين إن عندنا حلية من حـلية جلولاء، آنيـة من ذهب وورق[1] فانـظر أن تفرغ لذلك يومًـا فتـرى فيـه رأيك، فقـال: إذا رأيتني فارغًـا فآذني، فجاءه يومًا فقال: أراك اليوم فارغًا، قال: أجل فابسط لي نطعًا في الأشاء - وهو النخل الذي لا يسـقى - فبسط له فـيه نطعًا، ثم أُتِـي بذلك المال، فصُبَّ عليه، فدنا عمر حتى وقف عليه وقال: اللهم إنك ذكرت وقلت ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**﴾ [آل عمران: ١٤] وقلت: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٣]. وإنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينـته لنا، اللهم فاجعلني أنفقه في الحق، وأعذني من شره.

قال: وأُتِيَ عمر بابن له يحمل يقال له: عـبد الرحمن، فقال: يا أبتاه هب لي خاتمًا، فقال له عمر: اذهب إلى أمك تسقيك سويقًا[2].

وهكذا حينما رأى أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب رضي الله عنه نفائس الأموال التي أفاءها الله تعالى على المسلمين أدركته الخشـية من الله جل وعلا، فتفتق فكره عن تذكر الآيات التي تزهد المسلم في الحـياة الدنيا وتسمو بفكره نحو آفـاق الحياة الآخرة، ومع ما اشتهر به عمر من الورع والزهد فإنه يشير إلى طبيعة الإنسان التي جبل عليها من الفرح بطيبات الحياة الدنيا، ثم يلجأ إلى الله سبحانه بالدعاء ليسدده إلى الطريق القويم في إنفاق المال، وأن يعيذه من فتنته.

وفي آخر الخبر مثل من ورع أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث لم يسمح لابنه الصغير أن يأخذ شيئًا من مال المسلمين العام.

ويشبه ذلك ما أخـرجه الحافظ ابن عساكر أيضًا من خبـر عبد الله ابن واقد بن عبـد الله بن عمر قال: بعث أبو مـوسى من العراق إلى عمـر بن الخطاب بحلية، فوضعت بين يديه، وفي حجره أسماء بنت زيد بن الخطاب، وكانت أحب إليه من نفسه، لما قتل أبوها باليـمامة عطف عليهم، فأخذت من الحلية خاتمًـا فوضعته في

(١) الورق بكسر الراء الفضة.

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٢٥.

يدها، وأقبل عليها يقبلها ويلتزمها، فلما غفلت أخذ الخاتم من يدها، فرمي به في الحلية، وقال: خذوها عني[1].

هذا ومن النماذج الدالة على قيام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالمسؤولية وأداء الأمانة ما ذكره ابن جرير رحمه الله من أن عمر كان إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله، وتقدم إليهم بالوعظ لهم والوعيد على خلافهم أمره، ثم روى حديثًا بإسناده عن سالم بن عبد الله قال: كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير - يعني إلى اللحم - وأقُسم بالله لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة[2].

وهذا تركيز بالغ على القدوة الحسنة، وجمع بين القول والعمل، فإن الحاكم إذا أمر بأمر، والعالم الداعية إذا دعا إلى فعل خير أو ترك شر فإن أول ما ينظر الناس إليه وإلى أسرته، فإن رأوا تطبيقًا والتزامًا أخذوا قوله مأخذ الجد وسارعوا إلى التطبيق، وإلا فإن قوله لا يتعدى الآذان، وقد يطبقون من غير قناعة بشكل ضعيف ثم يحصل التفلت بعد ذلك.

وتهديد عمر رضي الله عنه أفراد أسرته بتضعيف العقوبة يلاحظ فيه أمران:

الأول: ارتكاب المخالفات، وهذا يشتركون فيه مع غيرهم.

الثاني: صدُّ الناس عن الالتزام، وهذا تنفرد به أُسَرُ المسؤولين ومن لهم بهم علاقة لأنهم موضع القدوة.

ولئن دَلَّ هذا على ورع عمر الشديد فإنه يدل أيضًا على حزمه البالغ في تنفيذ ما يراه في صالح المجتمع الإسلامي.

مثل من اهتمامه بأموال المسلمين:

من أمثلة اهتمامه البالغ في هذا المجال ما أخرجه الإمام الطبري من حديث أبي يزيد المديني قال: حدثنا مولى لعثمان بن عفان قال: كنت رديفًا لعثمان بن عفان

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٢٥.
(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٦.

حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم، فإذا رجل عليه إزار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الإبل يدخلها الحظيرة، حظيرة إبل الصدقة، فقال عثمان: من ترى هذا؟ قال: فانتهينا إليه فإذا هو عمر بن الخطاب، فقال: هذا والله القوي الأمين.

وأخرج أيضًا من حديث أبي بكر العبسي قال: دخلت حَيْرَ الصدقة - يعني الحظيرة - مع عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، قال: فجلس عثمان في الظل يكتب، وقام على رأسه عليٌّ يملُّ عليه ما يقول عمر، وعمر في الشمس قائم في يوم حار شديد الحر، عليه بردان أسودان، متزرًا بواحد، وقد لف على رأسه الآخر، يَعُدُّ إبل الصدقة، يكتب ألوانها وأسنانها، فقال علي لعثمان - وسمعته يقول نَعْتَ بنت شعيب في كتاب الله تعالى: ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ [القصص: ٢٦]، ثم أشار عليّ بيده إلى عمر، فقال: هذا القوي الأمين[1].

وهكذا رأينا اهتمام عمر الشديد بأموال الأمة، واستهانته براحته وصحته من أجل صيانة وحفظ هذه الأموال، وفي سبيل الأهداف العالية يهون على النفوس العظيمة تحمل المشاق، ولعل إحساس عمر الكبير بالمسؤولية، واستغراق فكره في أداء عمل يراه مهما قد أنساه الإحساس بحرارة الشمس ولفح السموم.

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

ولقد استحق عمر بجدارة ثناء كبار الصحابة عليه بالقوة والأمانة فهو القوي الأمين حقًا الذي لم تشغله كبار الأمور عن صغارها، وهو بعمله هذا نموذج حي للشعور بالمسؤولية والدقة في محاسبة النفس.

تورعه في صرف مال المسلمين:

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن المسيب قال: انكسر بعير من مال الله، فنحره عمر فصنعه، ودعا عليه أصحاب رسول الله ﷺ، فقال

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١.

العباس بن عبد المطلب: يا أمير المؤمنين لو صنعت لنا كل يوم مثل هذا أصبنا منه وتحدثنا عندك فقال عمر: يهون عليك جوع امرأة بسلع[1]؟ إنه كان لي صاحبان عملا عملاً وسلكًا طريقًا، إن عملت بمثل عملهما سلكت طريقهما، وإن عملت بغيرها لم أسلك في طريقهما[2].

فالمنهج واضح عند عمر رضي الله عنه فهو ملتزم بمنهج رسول الله ﷺ ومنهج صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد استقام على ذلك طوال حياته، وهذا قد جنبه الزلل وسار به على الطريق القويم.

محاسبته نفسه في رعيته:

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سلامة بن صبيح التميمي قال: قال الأحنف بن قيس: ما كذبت قط إلا مرة، قالوا: وكيف يا أبا بحر؟ قال: وفدنا إلى عمر بفتح عظيم، فلما دنونا من المدينة قال بعضنا لبعض: لو ألقينا ثياب سفرنا ولبسنا ثياب صوننا فدخلنا على أمير المؤمنين والمسلمين في هيئة حسنة وشارة حسنة كان أمثل، قال: فلبسنا ثياب صوننا وأدخلنا ثياب سفرنا، حتى إذا طعنَّا في أوائل المدينة لقينا رجل فقال: انظروا إلى هؤلاء أصحاب دنيا ورب الكعبة، قال: فكنت رجلاً ينفعني رأيي، فعلمت أن ذلك ليس بموافق للقوم، فعدلت فلبستها وأدخلت ثياب صَوْني العَيبة[3] وأشرجتها[4] وأغفلت طرف الرداء، ثم ركبت راحلتي فلحقت أصحابي، فلما دفعنا إلى عمر نَبَتْ عيناه عنهم ووقعت عيناه علي، فأشار إلى بيده فقال: أين نزلتم؟ قلت: في مكان كذا وكذا، قال فقال: أرني يدك، فقام معنا إلى مناخ ركابنا، فجعل يتخللها ببصره ثم قال: ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه؟ أما علمتم أن لها عليكم حقًا؟ ألا تقصدتم بها في المسير؟ ألا حللتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟ فقلنا: يا أمير المؤمنين إنا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا أن نسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بالذي يسرهم، فحانت منه التفاتة فرأى عيبتي فقال: لمن هذه العيبة؟ قلت: لي يا أمير المؤمنين،

(١) سلع هو الجبل المعروف في المدينة، والمعنى أننا إذا أنفقنا المال العام على الكبار قصرنا في حق الصغار.
(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٤٠ - ٣٤١.
(٣) العيبة وعاء من الجلد وهو بمنزلة الحقيبة الآن. (٤) أي ربطتها.

قال: فما هذا الثوب؟ قلت: ردائي، قال: بكم ابتعته؟ فألغيت ثلثي ثمنه، فقال: إن رداءك لحسن لولا كثرة ثمنه.

قال: ثم انصفق راجعًا ونحن معه، فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعْدِني[1] على فلان فإنه قد ظلمني، قال: فرفع الدِّرة فخفق بها رأسه، فقال: تَدَعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدني، أعدني! قال: فانصرف الرجل وهو يتذمر، قال: علي بالرجل، فألقى إليه المخفقة فقال: امتثل[2]، فقال: لا والله ولكن أدعها لله ولك، قال: ليس هكذا، إما أن تدعها لله إرادة ما عنده، أو تدعها لي، فاعلم ذلك، قال: أدعها لله.

قال: فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه، فافتتح الصلاة فصلى ركعتين وجلس فقال: كنتَ وضيعًا فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب المسلمين، فجاءك رجل يستعيذ بك فضربته، ما تقول لربك غدًا إذا أتيته؟ قال: فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة ظننا أنه من خير أهل الأرض[3].

في هذا الخبر نماذج من سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخلاقه، فبينما نراه رحيمًا بالبهائم، يلوم أصحابها على إتعابها في السير، نراه زاهدًا في الدنيا حيث رأى ثمن ذلك الثوب كثيرًا مع أن الأحنف لم يذكر له إلا ثلث ثمنه، ثم نراه متواضعًا عادلاً حينما طلب من ذلك الرجل أن يقتص منه، كما نراه غزير العلم حينما وجه ذلك الرجل إلى إخلاص العمل لله تعالى، ثم نراه خاشعًا لله جل وعلا عظيم الخشية منه حيث صار يعاتب نفسه ويحاسبها على شدته في معاملة ذلك الرجل الذي تظلم له، حتى حكم له الأحنف بمجموع تلك الفضائل بأنه من خير أهل الأرض، بل هو في خلافته خير أهل الأرض.

وأخيرًا موقف أخلاقي للأحنف بن قيس التميمي حيث كان قد نزه نفسه من الكذب ما عدا تلك المرة التي ذكر، وإن رجلاً يعيش عشرات السنين لا يمارس الكذب لهو رجل عظيم، لأنه قلما يسلم الناس من فلتات اللسان.

---

(١) أي انصرني.

(٢) أي اضربني مثل ما ضربتك.

(٣) تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٩١ - ٢٩٢.

خبره مع الحطيئة:

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: أمر عمر بإخراج الحطيئة من الحبس وقد كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره، فأُخرج وأنا حاضر فأنشأ يقولَ:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ	زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
غادرت كاسبهم في قعر مظلمة	فارحم هداك مليك الناس يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه	ألقى إليك مقاليد النُّهَى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها	لكن لأنفسهم كانت بك الخِيَرُ
فامنن على صِبيةٍ بالرمل مسكنهم	بين الأباطح يغشاهم بها القدر
نفسي فداؤك كم بيني وبينهم	من عرض أودية يَعْمَى بها الخبر

قال: فلما قال الحطيئة: ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ، بكي عمر، فقال عمرو ابن العاص: ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة[1].

فهذا مثل من أمثلة كثيرة على ما كان يتصف به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الرحمة والشفقة، حيث بكى حينما ذكر له الحطيئة أبناءه الذين أصبحوا لا عائل لهم، ولقد عَدَّ عمرو بن العاص رضي الله عنه ذلك منتهى العدل وكماله، لأن مساوئ الحطيئة الكثيرة تجعل قلوب الناس عليه قاسية، لأنه كان كثير الهجاء للناس، وقد سجنه عمر رضي الله عنه لحماية أعراض الناس منه.

خبره مع سلمان حينما اعترض عليه:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر العتبى قال: بُعث إلى عمر بِحُلَل فقسمها فأصاب كل رجل ثوب، ثم صعد المنبر وعليه حلة، والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان: لا نسمع، فقال عمر: لم يا أبا عبد الله؟ قال:

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٩٧ - ٩٨، والخضراء هي السماء والغبراء هي الأرض.

إنك قسمت علينا ثوبًا ثوبًا وعليك حلة، فقال: لا تعجل يا أبا عبد الله، ثم نادى: يا عبد الله، فلم يجبه أحد، فقال يا عبد الله بن عمر، فقال: لبيك يا أمير المؤمنين، فقال: نشدتك الله، الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك؟ قال: اللهم نعم، قال سلمان: فقل الآن نسمع[1].

فهذا خبر جليل يكشف لنا صورة من واقع الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وذلك في العلاقة بين الحاكم والمحكومين، فأفراد الرعية يقولون الحق علنا إذا رأوا أمرًا مجانبًا للصواب غير هيابين ولا متَرددين، والحكام يسمعون كلمة الحق بصدور رحبة وخضوع كامل للحق.

فأبو عبد الله سلمان الفارسي رضي الله عنه كان جريئًا حينما رد على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وكان في رده هذا يريد كشف الأمر للناس، وإلا فإنه يعرف أن عمر لا يفضل نفسه على أفراد الرعية بشيء، وكان فقيهًا حينما ربط السمع والطاعة بالعدل، وهذا يبين لنا أن العدل مع الرعية من شروط الطاعة.

وأمير المؤمنين عمر كان متواضعًا عادلاً حينما سمع كلام سلمان بصدر رحب وسماحة عالية، ولم يغضب من اعتراضه عليه.

فرضي الله عنهم ما أعظمهم حكامًا، وما أعظمهم محكومين!!

خبره مع القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص:

أخرج ابن عبد الحكم من خبر أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً من أهل مصر أتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين عائذٌ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه، فقدم فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين.

قال أنس: فضرب، والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٣٥.

المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه فقال عمر لعمرو: مُذ كم تَعَبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني[1].

فهذا موقف عظيم في العدل، أنصف به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رجلاً من أهل مصر من ظالمه ابن حاكم مصر.

لقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه مشهورًا بالعدل والحكمة، ولكن ابنه استغل مكانة أبيه فاعتدى على ذلك المصري، ورفع شعار العصبية، حيث اعتز بنسبه وجاه أبيه، فاعتبر أنه من طائفة الأكرمين وأن ذلك المصري من طائفة الأذلين، وحيث إنه لا استعباد فى الإسلام إلا في حال الحرب فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد فزع من سماع تلك الكلمة التي تنذر بخطر نشوء الطبقية في المجتمع الإسلامى، فلذلك كان علاجه لتلك الظاهرة الخطيرة حازمًا وحاسمًا.

إن الناظر في هذه القضية لأول وهلة يرى غرابة ذلك الحكم، حيث تم استدعاء والي مصر من أجل تلك القضية الصغيرة مع ما يترتب على ذلك من مشقة السفر واحتمال تأخير بعض الأحكام التي لا يبت فيها إلا عمرو نفسه، وكان يكفي أن يتم استدعاء صاحب القضية وهو ابن عمرو، ولكن أمير المؤمنين عمر كان يعلم أن ابن عمرو ما كان له أن يستطيل على الناس إلا بجاه أبيه، ولذلك أمر عمر المصري بأن يضرب عمرًا كذلك، فأراد عمر بذلك أن يقرر العدالة في أبلغ صورها، وذلك بحضور صاحب القضية وأبيه الذي انخدع ابنه بسلطانه فقال هذه الكلمة العظيمة التي أصبحت مثالاً لكمال العدل والإنصاف «مُذْ كم تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!».

ولا شك أن تلك الكلمة العظيمة كان لها مردود كبير في الدعوة إلى الإسلام، فإنها ترفع من معنوية جميع المصريين وكل الشعوب الذين تبلغهم، حيث أظهرت ما يدعو إليه الإسلام من محاربة كل أنواع العصبية وإقرار المساواة بين الناس.

لقد كانت هذه الكلمة مثلاً عاليًا في كمال العدل وسمو الأخلاق، حتى أصبح النصارى يستشهدون بها على عدالة الإسلام، لقد نادى أحد الصادقين في مجلس

(١) منتخب كنز العمال ٤/ ٤٢٠.

البرلمان المصري وهو الشيخ صلاح أبو إسماعيل بتطبيق الإسلام، فقام أحد الأعضاء من النصارى وقال: ولِمَ لا نوافق على تطبيق الإسلام؟ وهل رأينا في التاريخ من الإسلام إلا العدالة منذ أن أمر عمر بن الخطاب غلامًا من أبناء القبط بأن يقتص من ابن أمير مصر؟!

وهكذا حوَّل أمير المؤمنين عمر عدالة الإسلام إلى واقع تطبيقي خلَّده التاريخ حتى صار المسلمون في كل عصر يذكرون به عدالة الإسلام، ورحم الله أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما قالت في وصف عمر: كأنما خُلق للإسلام.

بيان أن الولاية لم تغير من أخلاقه:

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر عروة بن الزبير أن عمر رضي الله عنه خطب فقال: إن الله عز وجل قد ولاني أمركم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلُقي شيئًا إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولي، أَعِقلُ الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم أمري، فأيما رجل كانت له حاجة أو ظُلم مظلمة أو عتب علينا في خلق فليؤذنِّي فإنما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم وأعراضكم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضًا على أن تحاكموا إليّ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيب إليَّ صلاحكم عزيز عليّ عتبكم، وأنتم أناس عامتكم حَضَرٌ في بلاد الله، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه. ومطلع على ما يحضرني بنفسي إن شاء الله، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله تعالى[1].

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٥.

هذا الخبر مثل من أمثلة اتصاف عمر رضي الله عنه بالتوحيد وقوة الإيمان والاتصال بالله تعالى، فهو حينما يذكر تحمله لولاية المسلمين يسأل الله تعالى أن يعينه على أداء ما تحمل وأن يحرسه من الوقوع في الخطأ، وإن هذا ليُعدُّ مظهرًا من مظاهر تمثُّل العبودية لله جل وعلا، فالإنسان مهما اتصف بالعظمة وتحلى بالمواهب الممتازة ووفق بالأعوان المخلصين فإنه عبد لله تعالى ضعيف بنفسه محتاج إلى عون ربه جل وعلا، مفتقر إلى تسديده وتوفيقه.

ثم يشير إلى موضوع ثبات الشخصية واتزانها، وذلك ببيان أن عمر الذي كان جنديًا من جنود الإسلام هو عمر الذي أصبح خليفة على المسلمين، وأن الخلافة لن تغير من نفسيته وأخلاقه، وذلك لأنهم لم يكونوا ينظرون إلى الولاية والمسؤولية على أنها درجات رفيعة في الحياة الدنيا، وإنما ينظرون إليها على أنها مجال من مجالات العمل الصالح، فإنْ أحسن فيها حاملها وعدل والتزم بضوابط عبوديته لله تعالى كان له الثواب العظيم عند الله جل وعلا، الذي منه ما جاء في قوله ﷺ «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل**» الحديث[1].

وإن أساء وجار وتعالى وطغى فلم يلتزم بضوابط عبوديته لله تعالى فإنه يبوء بالعذاب الأليم يوم القيامة إذا لم يغفر الله له. ويقول حين لا ينفعه الندم ﴿**مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

ومن وصايا عمر رضي الله عنه النافعة في هذه الخطبة إرشاد المسلمين إلى اجتناب الظلم، وإنصاف إخوانهم من أنفسهم، وعدم التعدي الذي يلجئ المعتدى عليه إلى التظلم والشكوى.

ويثبِّت هذا المعنى ببيان أنه ليس بينه وبين أحد من الناس محاباة ولا مداراة، وأن الأمر إذا رفع إليه فسيقر ما يرى فيه من الحكم الشرعي.

وإن مما يثبت العدل ويجفف منابع الظلم ويقلل من وقوع الخصومات شعور المسلمين بقوة الوالي وحزمه وعدله بحيث لا يحابي سيدًا لجاهه ولا غنيًا لغناه، ولا يقبل شفاعة شافع في ظلم.

(١) صحيح البخاري، رقم ١٤٢٣، الزكاة (٣/ ٢٩٢).

ثم يبين عمر رضي الله عنه أن قيامه بهذه المسؤولية الكبرى يكون بأمرين: أن يطلع بنفسه على ما يحضره في دار الخلافة من أمور الرعية، وأن يوكِّل على ما بَعُدَ عنه من يثق بهم من أهل الأمانة، وأنه لن يجعل أمانته إلا عند أهلها.

وإذا كان المسؤول يقوم بنفسه في أداء مسؤوليته أو يوكلها إلى أهل الأمانة فإنه يكون قد أدى ما عليه من واجب، فإذا جاءت الأمور موافقة للحق ومحققة لمصلحة الأمة فهذا ما يهدف إليه أهل الإخلاص، وإن كانت غير ذلك فإن المسؤول قد بذل جهده، ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: رأى عوف بن مالك كأن شيئًا دُلِّي من السماء، فأخذ به رسول الله ﷺ فانبسط ثم دُلِّي، فأخذ به أبو بكر فانبسط، ثم ذُرِعَ الناسُ ففضلهم عمَر بثلاثة أذرعٍ، فقصها عوف على أبي بكر، فلمّا بلغ هذا المكان قال له عمر: دعنا من رؤياك، فسكت عوف، فلما استُخلف قال لعوف: بقية رؤياك، قال: أليس أنت انتهرتني فأسكتني؟ قال: إنّي كرهتُ أن تنعي إلى الرجل نفسه، هات رؤياك من أوّلها، حتى بلغ: وذُرع الناسُ ففضلهم عمر بثلاثة أذرع - قال: فقلت: ففيم فضلهم عمر بثلاثة أذرع؟ فقيل لي: إنّه خليفة، وإنه شهيد، وإنه لا يخاف في الله لومة لائم، قال عمر: أما الخلافة فإن الله عز وجل يقول: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [يونس: ١٤]، فقد استخلفت يا عمر، فانظر كيف تعمل، وأما الشهادة فكيف لي بها وحولي العرب، وإن الله لقادر على أن يسوقها إليّ، وأمّا ألا أكون أخاف في الله لومة لائم فما شاء الله[1].

وهكذا كان فهم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه للخلافة، فليست الخلافة لطلب زيادة الشرف والجاه، ولا للذكر بين الناس، وإنما هي مجال كبير للعمل، فمن عمل فيها صالحًا وعدل نال الأجر على ذلك من الله تعالى، ومن أساء وظلم فإنه يبوء بالإثم ويكون معرضًا للعذاب، وكون عمر يستحضر الآية التي استشهد بها دليل على عمق علمه ودقة فهمه.

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٤٠٥، وأخرجه ابن سعد من خبر أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وذكر نحوه - طبقات ابن سعد ٣/ ٣٣١.

ومما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعـد من خبر سعيد بن المسيب أن عمر قال: أيما عامل لي ظَلَم أحدًا فبلغتْني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته[1].

وهكذا يكون فهم المسؤولية، فإن المسؤول المباشـر ليست مسؤوليته مطلقة، ولا تبرأ ذمـة المسؤول الأعلى بأحكام المسؤول المبـاشر، بل يكون مشـاركًا له في الإثم عند المخالفـة إذا بلغه ذلك، كمـا أن المباشر مـسؤول عن المخالفـة إذا صدرت من الأعلى مسؤولية مـشاركة، فلا يجوز له تنفيذ مـا يراه باطلاً وإن كان قد صدر ممن هو أعلى منه.

اهتمامه بالرعية:

لقد كان اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالمسؤولية كبيرًا حتى إنه شمل البهائهم في الصحراء، ومما جاء في ذلك ما أخرجـه محمد بن سعد من خبر قطن ابن واهب بن عويمر بن الأجدع قال: إن عمـر بن الخطاب كان يسير ببعض طريق مكة، فسمع صوت راع في جبل فـعدل إليه، فلما دنا منه صاح: يا راعي الغنم، فأجابه الراعي: يا راعيها، فقال عمر: إني قد مررت بمكان هو أخصب من مكان، وإن كل راع مسؤول عن رعيته، ثم عدَل صدور الرِّكاب[2].

وهكذا مال بالإبل نحـو ذلك الراعي ليذكره بمسـؤوليته في رعي مواشـيه، وإن حاكمًا يشـعر بمسؤوليته عن البهـائم التي لا تقع تحت ملك دولته لجدير بأن يكون اهتمـامه أكبـر بأموال المسلمين العـامة، وإن أجدر من ذلك وأولى أن يهـتم بأفراد رعيته فيختار لهم الطيب الأفضل ويجنبهم السيئ الأرذل.

ومن ذلك ما أخرجه أبو جعفر محـمد بن جرير الطبري من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: قال عمر: إذا كنتُ في منزلة تسعني وتعجز عن الناس فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس[3].

فهذا مـثل أعلى في المساواة بين الراعي والرعيـة، وتمثيل لخلافة النبـوة، حيث التساوي مع الرعـية في نمط العيش، فالولاية في الإسـلام لا تعني الترفع بنوع من

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٥.
(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩١ - ٢٩٢.
(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١.

المعيشة، لأن ذلك يعني وجود الطبقية التي كان عليها ملوك فارس والروم، والتي كان من أهداف الإسلام محاربتها.

ومن ذلك ما أخرجه الطبري أيضًا من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: قال عمر: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما عمَّالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لِنْعم الحول هذا[1].

فهذا مثل مهم في شعور الوالي بمسؤوليته عن جميع أفراد رعيته، حيث عزم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في السير في البلاد الإسلامية لسماع شكاوى الناس، مع اجتهاده الدقيق في التحري في اختيار الولاة ومحاسبتهم.

وأخرج أيضًا من خبر أسلم العدوي مولى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال: بعثني عمر بإبل من إبل الصدقة إلى الحِمَى فوضعت جهازي على ناقة منها، فلما أردت أن أصدرها قال: اعرضها علي، فعرضتها عليه فرأى متاعي على ناقة منها حسناء، فقال: لا أم لك! عمدت إلى ناقة تغني أهل بيت من المسلمين! فهلا ابن لبون بوالا. أو ناقة شصوصا![2].

فهذا مثل من اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأموال المسلمين العامة وتقديم مصالحهم على المصالح الخاصة، كما أنه مظهر من مظاهر مراقبة الله تعالى، حيث لم يجامل الحاضر على حساب مصلحة الغائب.

وأخرج الطبري أيضًا من خبر أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب: إن ها هنا رجلاً من أهل الأنبار له بَصَر بالديوان، لو اتخذته كاتبًا! قال عمر: لقد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين[3].

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٢، وابن اللبون ولد الناقة إذا كان في العام الثاني أو دخل في الثالث، والشصوص الناقة الغليظة اللبن.

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٢.

يريد قـول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]

فجواب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يُعـدُّ إدراكًا عميقًا لمبدأ الولاء والبراء، حيث لا يجوز وضـع أمور المسلمين في يد غيرهم لأنهم لا يؤتمنون علـى مصلحة الأمة، وفي هذا اهتمام بدرء المفاسد وإن كانت قد لا توجد إلا في المستقبل.

وأخرج ابن جرير الطبري أيضًا من خبر أبي عمران الجوني قال: كتب عمر إلى أبي موسى[١]: إنه لم يزل للناس وجوه يرفـعون حوائجهم، فأكـرم من قِبَلَك من وجـوه الناس، وبِحـسْب المسلم الضـعـيف من العدل أن يُـنصفَ في الحكم وفي القسم[٢].

فهذه وصية من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بإكـرام وجوه المسلمين، فـالناس قادة وعامـة، وتتفـاوت درجات القـيادة بتفاوت سمعة القادة، والقادة يتكوَّنون في المجتمع حسب ما يقدمون لمجتمعهم من العلم النافع ومكارم الأخلاق كـالكرم والشجاعـة والوفاء والإيثار، فهـؤلاء وجوه الناس الذين يرفعون حـوائج المحتاجين لمن بيدهم الأمـر، وإكرام هؤلاء السادة من عوامل نجـاح الحكم واستقرار المجـتمع، وهؤلاء الذين تتكون سيـادتهم من خلال عملهم الصالح لن يشـفعوا لأحد إلا بأمر فيـه خير له ولا مضرة فيـه على غيره، وبهذا يستقيم المجتمع ويتجه نحو الصلاح.

وهناك سادة تتكون سيادتهم من قربهم من الحكام بغض النظر عن تمثيلهم لمكارم الأخلاق، فـهؤلاء غـالبًا يكون الضـابط لشفـاعاتهم هو بناء سـمعـتهم وإشـباع غرورهم، لأن سيادتهم لم تتكون من رصيدهم الأخلاقي الذي تم بناؤه شيئًا فشيئًا حتى ترسخ في النفوس، وإنما تكون من علاقـتهم بالحكام، وهؤلاء تزول سيادتهم بزوال الحكام الذين رفعوهم بمـا يقدمون لهم من خدمات، بخـلاف وجهاء الناس الذين تكونت سيادتهم بما لَهم من رصيد علمي وأخـلاقي فإن سيادتهم راسخة في المجتمع ولا تتغير بتغير الولاة والدول.

---

(١) هو أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس رضي الله عنه.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٠٣.

ثم يبين عمر رضي الله عنه أن أمـور العامة تستقـر بأمرين: العدل في الحكم، والعدل في توزيع المال العام، وذلك لأن النفوس مهمـا بلغت من التضحية والصبر فـإنه يندر وجـود من يصـبر على الضـيم والهـضم ويتنازل عن حـقـه في المال، خصوصًا مـع الحاجة إليه، فإذا لم يحصل الإنصـاف في هذين الأمرين لجأ الناس إلى وجهائهم ليدافـعوا عنهم ويستخلصوا لهم حقـوقهم، فإذا لم يُسمع من هؤلاء السادة فـإن سمعتـهم تضعف أو تزول، وبذلك تنفصم حلقـة الاتصال بين الولاة والعامة أو تضعف، وبالتالى قد تكون المواجـهة، وستكون بغير نظام ولا ضوابط، مما يسبب حدوث الفـوضى والقلاقل في المجتمع، وذلك لغـياب وجوه الناس عن الساحة، وقد يشارك بعضهم في تمثيـل هذه المواجهة إذا رأوا ظلمًا فادحًا، وهضمًا لحقوق الناس واضحًا.

ومن هنا نعرف قـيمة هذه الوصـية الغالية من أمـير المؤمنين عمـر الذي حنكته التجارب وصقلته المحن، بعد استهدائه بنور الله تعالى واعتصامه بشريعته.

مثل من عدالة عمر في توزيع العطاء:

أخرج المؤرخ محمـد بن سعد من خبر جهم بن أبي جـهم قال: قدم خالد بن عُرْفُطة العُذري على عمر فسأله عـمّا وراءه فقال: يا أمير المؤمنين تركتُ من ورائي يسألون الله أن يزيـد في عمرك من أعـمارهم، ما وطئ أحـدٌ القادسـية إلا عطاؤه ألفان أو خمس عـشرة مائة، وما من مولود يولدُ إلا أُلحق عـلى مائة وجريبين كل شهر ذكرًا كان أو أنثى، وما يبلغ لنا ذكرٌ إلا أُلحق على خـمسمائة أو ستّمائة، فإذا خرج هذا لأهل بيت منهم من يأكل الطعام ومنهم من لا يـأكل الطعام، فما ظنك به؟ فإنه لينفقه فيما ينبغي وفيمـا لا ينبغي، قال عمر: فالله المستعان إنما هو حقهم أعطوه وأنا أسعد بأدائه إليـهم منهم بأخذه، فلا تحمدني عليه فـإنه لو كان من مال الخطاب ما أعطيتمـوه ولكنّي قد علمتُ أن فيه فضلاً ولا ينبـغي أن أحبسه عنهم، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العـريب ابتاع منه غنمًا فجـعلها بسوادهم ثم إذا خرج العطاء الثانية ابتاع الرأس فجعله فـيها فإني ويحك يا خالد بن عرفطة أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاة لا يُعدُّ العطاء في زمانهم مالاً، فإن بقي أحدٌ منهم أو أحدٌ من ولده كان لهم شيء قد اعـتقدوه فيتكئون عليه، فـإن نصيحتي لك وأنت

عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين وذلك لما طوقني الله من أمرهم، قال رسول الله ﷺ: «**من مات غاشًا لرعيته لم يرح رائحة الجنة**»[1].

فهذا مثل من النعمة والرخاء في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد وسع العطاء المسلمين مع كثرتهم حينما تم توزيعه بالعدالة ولم يقتصر على كبراء الناس ووجهائهم.

وفى قول أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه «إنما هو حقهم أُعطوه وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه» تصوير بارع للسعادة النفسية التى يشعر بها المسؤول وهو يؤدى الحقوق إلى أفراد رعيته.. وإنه إذا كان كل فرد من أفراد المسلمين يفرح إذا أخذ عطاءه فإن الإمام العادل يفرح فرحًا يزيد على فرح أفراد الأمة، لأنه يؤمل بالثواب العظيم المترتب على فرحهم، كما أنه يحزن حزنًا بالغًا إذا أصابتهم المصائب، ويشعر بالإثم الكبير إذا قصَّر فى أداء حقوقهم أو نالهم منه شئ من الظلم.

وفى هذا الخبر توجيه سديد من أمير المؤمنين عمر إلى عمارة الأرض بما يفيد وينفع للأجيال القادمة، فقد يكون الإنسان فى حاضرة ميسور الحال لما يحصل عليه من مورد ثابت، ولكن لماذا لا يقتصد فى إنفاقه ليوفر المال الذى يبقى أصله ويستفاد من ريعه من أجل مستقبله ومستقبل أسرته وأمنه، فإنه حينما تتبدل الأحوال وتنضب الموارد فإن أفراد الأمة يلتفتون يمينًا وشمالاً فلا يجدون إلا أصحاب الشهامة والكرم، ومنهم الذين اقتصدوا فى حال يسارهم لينقذوا أمتهم فى حال نكباتها.

فما أروع الولادة الذين يخططون لمستقبل أمتهم ولا يتركونهم ليواجهو المفاجآت الصعبة وهم فى حالٍ من الركود الفكرى وعدم الاستعداد للنوائب!!

وما أعظم الإسلام الذى أنجب وينجب مثل هؤلاء العظماء!!

سؤاله عن أحوال أمرائه:

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر الأسود بن يزيد قال: كان الوفد إذا قدموا على عمر رضي الله عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيرًا، فيقول: هل

(١) طبقات ابن سعد ٣/٢٩٨ - ٢٩٩.

يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم، فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون: نعم، فيقول: كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها، لا، عزله[1].

فهذا اهتمام من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأحوال الأمراء في عهده، فهو يتحرى ويجتهد في اختيارهم، ولكنه لا يكتفي بذلك بل يسأل عنهم أفراد رعيتهم الذين يفدون إليه، ويركز على ضرورة اتصافهم بالتواضع والعدل، ولا يتردد في عزلهم إذا أنكر عليهم شيئًا من سلوكهم.

اهتمامه بتولية الأكفاء:

مما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر الزهري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه[2].

فالولاية لابد أن يتوفر فيها عاملان: القوة والأمانة كما جاء في قول الله تعالى حكاية عن كلام ابنة شعيب عليه السلام ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ [القصص:٢٦] والقوة درجات، وأمير المؤمنين عمر يخبر بأنه يتحرج من تأمير من هو في درجة أقلَّ في القوة وهو يجد من هو أقوى منه لأن ذلك نقص في تحقيق المسؤولية العليا عن الأمة، فإن أداء من هو أضعف في القوة أقل من أداء من هو أقوى منه.

بيان شيء من سياسته:

من ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي معشر قال: حدثنا أشياخنا أن عمر قال: إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التي لا جبرية فيها وباللين الذي لا وهن فيه[3].

وهكذا يضع لنا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قاعدة من قواعد الحكم الناجح، وهي القوة من غير عنف واللين من غير ضعف، وقد كان يطبق هذه السياسة في عهده، وكانت من أسباب نجاحه في إدارة أكبر دولة على وجه الأرض حينذاك أكثر من عشر سنوات بدون حدوث فتن ولا اضطرابات.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٦.
(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٥.
(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٤٤ - ٣٤٥.

مثل من عدالته في الحكم:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الحرمازي قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى فيروز الديلمي[٢]: أما بعد فقد بلغني أنه شغلك أكل اللباب بالعسل، فإذا أتاك كتابي هذا فاقْدَم على بركة الله، فاغز في سبيل الله، فقدم فيروز فاستأذن على عمر فأذن له فزاحمه فتى من قريش، فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي، فدخل القرشي على عمر مستدمَى، فقال له عمر: من فعل بك؟ قال: فيروز وهو على الباب، فأذن لفيروز بالدخول فدخل، فقال: ما هذا يا فيروز؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا كنا حديث عهد بملْك، وإنك كتبت إلي ولم تكتب إليه، وأذنت لي بالدخول ولم تأذن له، فأراد أن يدخل في إذني قبلي، فكان مني ما أخبرك، قال عمر رضي الله عنه: القصاصَ، قال فيروز: لابد، قال: لابد، فجثى فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه، فقال له عمر: على رسلك أيها الفتى، حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، وسمعت رسول الله ﷺ ذات غداة وهو يقول: «**قُتل الليلة الأسود العنسي الكذاب، قتله العبد الصالح فيروز الديلمي**» أفتراك مقتصًا منه بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟. قال الفتى: قد عفوت عنه بعد إذ أخبرتني عن رسول الله ﷺ بهذا، فقال فيروز لعمر: أفترى هذا مخرجي مما صنعت إقراري له وعفوه غير مستكره؟ قال: نعم، قال فيروز: فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفا من مالي هبة له، قال: عفوت مأجوراً يا أخا قريش وأخذت مالاً[١].

فهذا مثل من أحكام أمير المؤمنين عمر العادلة في المساواة بين الناس في القصاص، كبيرهم وصغيرهم أميرهم ومأمورهم، فهذا الأمير فيروز الديلمي أخذ منه الغضب مأخذه، وكان يحمل شيئًا من رواسب الاعتزاز بالسلطة فأقدم على لطم ذلك الرجل، ولم يكن مقام فيروز الرفيع وجهاده المشكور بالذي يجعل عمر يتغاضى عنه، لأن ذلك يترتب عليه ظلم المعتدَى عليه، فحكم بالقصاص، ولكنه مع ذلك حفظ لذلك الأمير بلاءه في الجهاد في سبيل الله تعالى الذي ترتب عليه ثناء النبي ﷺ، فشفع له عند ذلك الفتى حتى عفا عنه.

وموقفٌ يذكر لفيروز حيث أعطى ذلك الرجل تلك العطايا الجزيلة مقابل عفوه عنه.

***

(١) هو أحد أبناء فارس الذين أرسلهم كسرى لحكم اليمن، وقد أسلم وحسن إسلامه وجاهد في سبيل الله تعالى.
(٢) تاريخ دمشق ٤٩/ ٢٢ - ٢٣.

من مواقف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

كتابه إلى الولاة:

ذكر هذا الكتاب الإمام ابن جـرير الطبري فيما يرويه عن شيـوخه قالوا: وكان أولَ كتاب كتبه عثمان إلى عماله:

أما بعد: فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإنَّ صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، لم يُخلقوا جـباة، وليوشكنَّ أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونون رعـاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحيـاء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثَنُّوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدوُّ الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء[1].

وفي هذا الكتاب أشار عـثمان رضي الله عنه إلى بيان مـهمة الولاة الذين يلون أمور المسلمين، حـيث بين أنهم رعاة، ومهـمة الرعاة حفظُ رعـاياهم والعنايةُ بهم وبذلُ الجهد في صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة، وليسوا جُباةً لأموالهم، بل هم مستأمَنون على تلقي موارد الدولة المالية وصرفِها بأمانة وعدالة.

ونبه على مـا سيكون عند تغيـر الولاة من رعاة إلى جبـاة، بأن ذلك سببٌ في تقلص مكارم الأخلاق التي مثَّل لها بالحـياء والأمانة والوفاء، وذلك أنَّ بين الراعي والرعية خـيطًا ساميًا من العلاقات المتـينة، يؤكده ويثبِّتُه اتفـاق الجميع على هدف واحد، وهو ابتغاء وجه الله تعالى، فالوالي يسعى لهذا الهدف بما يقدمه لرعيته من رعاية وعدالة، وأفـرادُ الرعية يسعون لهـذا الهدف بما يقدمونه لإمـامهم من طاعة وولاء وأمانة ووفاء، ويبقى خُلُق الحياء الذي أشار إليه عثمان يُظلُّ الجميع فيمنعُهم من ارتكاب ما يُستقبح أو التعرض لجرح المشاعر والإيقاع في الحرج.

ثم يوصي عثمـان ولاته بالعدل في الرعية، وذلك بأخذ ما عليـهم من الحقوق وبذل ما لهم مـن ذلك، ويشير إلى نقطـة مهمـة وهي أن الوفاء بالعـهود من أهم

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٥.

أسباب الفتح والنصر على الأعداء، وقد تقدمت لنا أمثلة تبين أثر هذا الخلق الرفيع في تفوق المسلمين الإداري والحربي.

كتابه إلى الجُبَاة:

قال الإمام ابن جرير: قالوا: وكان أولَ كتاب كتبه إلى عمال الخراج: أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانةَ الأمانةَ، قوموا عليها، ولا تكونوا أولَ من يُسلَبُها، فتكونوا شركاء مَنْ بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاءَ الوفاءَ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم[1].

ففي هذا الكتاب تذكير بالله تعالى لتكون رقابته هي المهيمنةَ على النفوس، فيلتزمَ من ولاهم الله أمور أموال الأمة بالحق ويستقيموا عليه، فلا يأخذوا الأموال من مصادرها إلا بطريق حلال، وإذا أخذوها قاموا بحفظها بأمانة حتى يؤدوها في وجوهها المشروعة.

ثم يوصيهم بلزوم الأمانة، ويذكِّرهم بأنهم إن سُلِبوها فإنهم يتحملون مغبة فقدها في الدنيا والآخرة، ويشاركون في المأثم من تأسي بهم في ذلك.

ثم يوصيهم بالوفاء بأداء حقوق اليتامى والمعاهدين، ويذكِّرهم بأنهم إذا ظلموهم فإنهم معَرَّضون لنقمة الله تعالى، لأنه خصم لمن ظلَم هؤلاء المستضعفين.

وفي هذا لفتة إلى جانب من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين وإن كانوا من الكفار المعاهدين.

ومن أمثلة عدله مع أفراد رعيته حتى المماليك منهم ما ذكره المحب الطبري من خبر أبي الفرات قال: كان لعثمان رضي الله عنه عبد فقال له: إني كنت عركت أذنك فاقتص مني، فأخذ بأذنه ثم قال عثمان رضي الله عنه: اشدد، ياحبذا قصاص الدنيا لا قصاص الآخرة[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٥.

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢/ ١١١.

فهذه صـورة حية من تذكُّـر مشاهد الآخرة، وقد كـان هذا التذكر صَـمَّام أمان ووازعًا قويًا للصـحابة رضي الله عنهم والصالحين من بعدهم، حـيث دفعهم ذلك إلى التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكـر من خبر إسماعيل بن أبي خالد وذلك في حديثـه عن الفتنة التي أدت إلى مـقتل عثـمان رضي الله عنه وقـد ذكر بعض الدعاوى التي ادعاها عليه الثوار وجوابه عنها إلى أن ذكر قول عثمان «وأما قولهم: تناول أصحـاب النبى ﷺ إنما أنا بشر أغـضب وأرضى، فمن ادعى قِبَلي حـقا أو مظلمة فها أنا، فإن شاء قَوَدٌ، وإن شاء عفو، وإن شاء أُرضي» قال: فرضي الناس واصطلحوا[1].

فهذا مثل عال في العدل حيث قبل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أن يُمكِّن كل من ادعى عليه في مظلمة أو حق من الأخذ بحـقه منه ولو في القصاص، وقد كان هذا التـسامح والعـدل سببًـا في قناعة الثائـرين وإصلاح ذات البين، لولا أن أولئك الثائرين كـان فيهم أصـحاب هوى فاسـد فكان منهم ما كـان بعد ذلك من العودة إلى المدينة وحصار عثمان رضي الله عنه وقتله.

***

(١) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٤٩.

من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه

أمثلة من عدله:

من أمثلة عدل أمير المؤمنين علـي رضي الله عنه في الحكم ما أخرجه الإمام ابن جرير الطبري من خبـر ناجية القرشي عن أبيه قال: كنا قيـامًا على باب القصر إذ خرج عليٌّ علينا فـلما رأيناه تنحينا عن وجـهه هيبـة له، فلما جاز صـرنا خلفه، فبيـنما هو كذلك إذ نادى رجل: يا غوثًا بالله! فـإذا رجلان يقتتـلان، فلكز صدر هذا وصدر هذا، ثم قـال لهما: تنحـيا، فقـال أحدهما: يا أمـير المؤمنين إن هذا اشترى مني شاة وقد شرطت عليه أن لا يعطيني مغموزا ولا محذَّقا -يعني الدراهم المعيبة- فأعطاني درهمًا مغموزًا فرددته عليه فلطمني، فقال للآخر: ما تقول؟ قال: صـدق يا أمـير المؤمـنين قال: فـأعطه شـرطه، ثم قـال للأَّطم: اجلس، وقـال: للملطوم، اقتص، قال: أو عفوٌ يا أميـر المؤمنين، قال: ذلك إليك، قال فلما جاز الرجل قال علي: يا معشر المسلمين خذوه، قـال: فأخذوه فحمل على ظهر رجل كما يحـمل صبيان الكتَّـاب، ثم ضربه خمس عشرة دِرَّة، ثـم قال: هذا نكال ما انتهكت من حرمته، وفي رواية أنه قال: هذا حق السلطان[1].

هذا وإن هذا الخبر ليعـدُّ مثلا عاليًا للتواضع حيث يخرج أمـير المؤمنين من بيته إلى السوق يتفـقد أحوال الناس، ويقوم بنفسـه في حل مشكلاتهم، وهو نوع من السلوك العالي الذي يبرز وجود الولاة في واقع حياة الرعية سواء قام بذلك الوالي الأكبر أو من دونه، ولا يلزم تكرر هذا الوجود كل يوم، إذ يكفي شعور الناس بأن الولاة مـعهم في مـشكلاتهم ليطمئن صـاحب الحق على بقـاء حقه في حـوزته، وعودته إليه فيما لو اعتُدي عليه، وليرتدع من تسوِّل له نفسه بالإعتداء على حقوق الناس، وقبل ذلك وأهم منه أن يرتدع كل من يحدِّث نفسه بالاعتداء على حق الله تعالى.

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ١٥٧.

وهذا الوجود الملاحم بين الوالي والرعية يظهـر بصور متعددة تتناسب مع أنماط الحياة في كل عصر، فلا يقولنَّ قائل بأن ما قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يعدُّ سائغًا في عـصره ولكنه بعيد التَّصور في هذا العصـر، فإنه لا عبرة بالأشكال والصور، وإنما العبرة بالأهداف والمقاصد التي تتحقق بها الحياة السعيدة للمسلمين، وذلك برعاية حق الله أولاً ثم حقوق الناس العامة والخاصة.

وفيما قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من إجراء العقوبة على المعتدي مع تنازل صـاحب الحق دلالة على إدراكه رضـي الله عنه لمقاصـد الإسلام من حـفظ الأمن وإشاعة السلام بين المؤمنين، وذلك لأنه سيـرتدع من تميل نفسه إلى الاعتداء على غيره إذا عرف بأن العقوبة ستجري عليه ولو عفا عنه خصمه.

ومن أمثلة عـدله رضي الله عنه جلوسه مع يهـودي عند القاضي شـريح، وقد أخرج خبره في ذلك الحافظ أبو نعيم من خبر يزيد التيمي قال: وجد علي بن أبي طالب درعا له عند يهـودي التقطها فعـرفها، فقال: درعي سـقطت عن جمل لي أورق. فقال اليـهودي: درعي وفي يدي، ثم قال له اليهـودي: بيني وبينك قاضي المسلمين، فأتوا شريحًا فلما رأي عليا قد أقبل تحرف عن موضعه وجلس علي فيه، ثم قال علي: لو كان خـصمي من المسلمين لساويته في المجلـس، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يـقول: «**لا تسـاووهم في المجلس وألجـؤوهم إلى أضـيق الطرق فـإن سبوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم**» ثم قال شريح: ما تشاء يا أمير المؤمنين؟ قال درعي سقطت عن جمل لي أورق والتقطها هذا اليهودي. فقال شريح ما تقول يا يهودي؟ قال: درعي وفي يدي. فقال شـريح: صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لابد من شاهدين، فـدعى قنبرا مولاه والحسن بن علي وشـهدا أنها لدرعه. فقـال شريح: أما شهادة مـولاك فقد أجزناها، وأما شـهادة ابنك لك فلا نجيزها فقال علي: ثكلتك أمك، ما سـمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله ﷺ: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**».

قال: اللهم نعم! قال: أفلا تجيز شهـادة سيد شباب أهل الجنة؟ والله لأوجهنك إلى بانقـيا تقضى بين أهلـها أربعين يوما، ثم قـال لليهـودي: خذ الدرع. فـقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين فقضى عليه ورضي! صدقت

والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل لك فالتقطتها، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقال علي: الدرع لك وهذا الفرس لك وفرض له في تسعمائة، ثم لم يزل معه حتى قتل يوم صفين»[1].

وذكره الحافظ ابن كثير من خبر عامر الشعبي بنحو ذلك[2].

فهذا المشهد الرائع قد أثار نوازع الخير لدى ذلك اليهودى فأدرك بتأمله السريع أن هذا حكم لا يصدر إلا من ورثة الأنبياء عليهم السلام، وأن الإسلام هو الذي حمل أمير المؤمنين على الجلوس معه أمام القاضي، ثم مطالبة القاضي أمير المؤمنين بالبينة، فأعلن إسلامه.

وهكذا كان تطبيق الإسلام كاملا كما جاء من عند الله تعالي أقوى دعوة إلى فهم عظمة هذا الدين ثم دخول الناس فيه، وخصوصا إذا كان تطبيقه بهذا المستوى العالي من أعلى مسؤول فى دولة الإسلام.

ولقد ضرب علي رضي الله عنه من نفسه مثلا عاليا للقدوة الحسنة حيث سيسارع إلى الاقتداء به في هذا الإيمان القوي والأخلاق الإسلامية كلٌّ من الولاة والعامة.

ولقد نبه رضي الله عنه ببيان سنة الإسلام في معاملة غير المسلمين إلى أن جلوسه بجوار القاضي وعدم جلوسه مع خصمه اليهودي إنما هو من باب رفعة المسلمين وإعزاز الإسلام، الأمر الذي دعا إليه رسول الله ﷺ، وليس من باب التميز على خصمه الذي هو مدخل إلى تحريض القاضي على الجور، إذ لو كان خصمه مسلما لجلس معه ولم يتميز عليه.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عمرو بن سلمة: أنه قدم من أصبهان على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بزقاق من عسل وسمن فأمره علي أن يضعها في الرحبة حتى يقسمها بين المسلمين، وأن أم كلثوم بنت علي

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٣٩- ١٤٠.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٥، وقد ذكر بعض العلماء أن هذا الخبر غير مقبول وتكلم على ضعف سنده، وهذا الحكم إنما ينطبق على السنة النبوية أما الأخبار التاريخية فلا تطبق عليها معايير النقد عند المحدثين على قول جمهور العلماء، وكون الحافظ ابن كثير أورده وسكت عنه يعد توثيقًا له.

بعثت إليه[1]: أرسل إلينا من هذا العسل الذي معك، فبعث إليها بزقَّين من عسل وسمن، فلما خرج علي إلى الصلاة عدَّها فوجدها تنقص زقين، فدعاه فسأله عنهما، فقال: يا أمير المؤمنين لا تسألني عنهما فإنا نأتي بزقَّين مكانهما، قال: عزمت عليك لتخبرني ما قصتهما، فقال: بعثت إلي أم كلثوم فأرسلت بهما إليها، قال: أمرتك أن تقسم بين المسلمين فيئهم؟ ثم بعث إلى أم كلثوم: أن رُدِّي الزقَّين، فأُتي بهما مع ما نقص منهما، فبعث إلى التجار فقدروهما مملوءين وناقصين فوجدوا فيهما نُقصان ثلاثة دراهم وشيء، فأرسل إليها: أن أرسلي إلينا بالدراهم، ثم أمر بالزِّقاق فقُسمت بين المسلمين[2].

فهذا الخبر مثل على حرص أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على أموال المسلمين والدقة في الإحصاء حيث عرف بسرعة عدد تلك الزِّقاق ولم يعتمد في ذلك على الأمير الذي قدم بها، ثم قام بعدِّها مرة ثانية فتبين نقصها، ثم لما علم بذلك ألحَّ في معرفة من الذي أخذها، ولما تبين له أن الذي طلبها هي ابنته أمرها برد ذلك وقيمة ما أخذت منه، وهذا مثل على كمال العدل وعدم محاباة الأقارب على حساب أفراد الأمة.

إنصافه للخلفاء السابقين:

من أخباره رضي الله عنه في العدل مع الآخرين ما روي عنه من القول بالحق في شأن الخلفاء الراشدين قبله والثناء عليهم ومن ذلك ما أخرجه الإمام الذهبي بإسناده من خبر الإمام الحسن البصري قال: لما قدم عليّ البصرة قام إليه ابن الكوَّاء، وقيس بن عبّاد فقالا له: ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرْتَ فيه، تتولّى على الأمة، تضربُ بعضهم ببعض، أعهدٌ من رسول الله ﷺ عهدهُ إليك، فحدِّثْنا فأنت الموثوق المأمون على ما سمعت؟ فقال: أما أن يكون عندي عهدٌ من النبي ﷺ في ذلك فلا، والله إن كنتُ أوّل من صدَّق به، فلا أكون أول من كذبَ عليه، ولو كان عندي من النبي ﷺ عهدٌ في ذلك، ما تركت أخا بني تَيْم بن مُرّة[3]، وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتُهُما بيدي، ولو لم أجد إلا

(١) يعني إلى عمرو بن سلمة.

(٢) تاريخ دمشق ٤٢/ ٤٧٩ بتصرف يسير.

(٣) يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

بُرْدي هذا، ولكن رسول الله ﷺ لم يُقْتل قتلا، ولم يمتْ فجأة، مكث في مرضه أيامًا وليالي، يأتيه المؤذِّن فيؤْذِنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس، وهو يرى مكاني، ثم يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصّلاة، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس، وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبي وغضب وقال: «**أنتُنّ صواحب يوسف، مُرُوا أبا بكر يُصلِّ بالناس**».

فلما قبض الله نبيَّه، نظرنا في أمورنا، فاخترنا لدُنيانا من رضيه نبيُّ الله لديننا. وكانت الصلاة أصل الإسلام، وهي أعظم الأمر، وقوام الدين. فبايَعْنا أبا بكر، وكان لذلك أهلا، لم يختلف عليه منّا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم نقطع منه البراءة، فأدّيتُ إلى أبي بكر حقَّه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده، وكنت آخذُ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسَوْطي، فلما قُبِضَ، ولاّها عمر، فأخذ بسُنَّة صاحبه، وما يعرف من أمره، فبايعنا عمر، لم يختلف عليه منّا إثنان، ولم يشهد بعضُنا على بعضٍ، ولم نقطع البراءة منه، فأدَّيْتُ إلى عمر حقَّه،وعرفت طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخُذُ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسَوطي.

فلمّا قُبض تذكَّرت في نفسي قرابتي وسابقتي وسالفتي وفضْلي، وأنا أظنّ أن لا يعْدل بي، ولكنْ خشي أن لا يعمل الخليفة بعده ذَنْبًا إلا لحِقَه في قبره، فأخرج منها نفْسه وولده، ولو كانت محاباةً منه لآثر بها ولَدَه فبرئ منها إلى رهطٍ من قريش ستّة، أنا أحدُهُمْ.

فلمّا اجتمع الرَّهْط تذكَّرت في نفسي قرابتي وسابقتي وفضلي، وأنا أظنّ أن لا يعْدلوا بي، فأخذ عبد الرحمن مواثقنا على أن نسمع ونُطيع لمن ولاه الله أمرنا، ثمّ أخذ بيد ابن عفان فضرب بيده على يده، فنظرت في أمري، فإذا طاعتي قد سبقت بيْعتي، وإذا ميثاقي قد أُخذ لغيري، فبايعنا عثمان، فأدَّيت له حقّه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه بسَوْطى.

فلمّا أصيبَ نظرت فى أمري، فإذا الخليفتان اللّذان أخذاها بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصّلاة قـد مضيا، وهذا الذي قد أُخذ له الميثاق قـد أصيب، فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين[1].

فهذا مـثل من أمثلة العدل وقول الحق ولو كـان لغير صالح النفس مـن الناحية الدنيوية، وشاهد من شواهد الأمانة في نقل سنة رسول الله ﷺ، فقد كان بإمكان علي رضي الله عنه أن يقـول شيئًا مما يـثبت أمره ويُعـدُّ قوة على منافسـيه، ولكنه يعلم أن ذلك من خيـانة الأمانة الدينيـة، وما كان ليـقدم مجد الـدنيا الزائل على رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية.

إن هذا الأمر لا يتصـور حدوثه من صغار الصحـابة رضي الله عنهم فضلا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه المشهود له بالجنة والسابق بالخيرات.

ومن أمثلة عـدله رضي الله عنه في الحكم على الآخرين ما أخرجـه الحافظ ابن عسـاكر من خـبر سـويد بن غفلة قـال قال علي: يا أيهـا الناس إياكم والغلو في عثمان، تقولـون حرق المصاحف، والله ما حرقها إلا عن ملأٍ من أصـحاب محمد ﷺ، ولو وليت مثل ما ولى لفعلت مثل الذي فعل.

وفي رواية أخـرى من خبر سـويد بن غفلة قـال قال علي: اخـتلف الناس في القرآن على عـهد عـثمان، قـال: فجعل الرجل يقـول للرجل: قراءتي خـير من قراءتك، قال: فبلغ ذلك عثمان فجـمَعنا أصحابَ رسول الله ﷺ فقال: إن الناس اختلفوا الـيوم في القراءة وأنتم بين ظهرانيـهم، فقد رأيت أن أجمعـهم على قراءة واحدة، قـال: فأَجمعَ رأينـا مع رأيه على ذلك، قال: وقال علي: لـو وليت مثل الذي ولى لصنعت مثل الذي صنع[2].

فهـذا مثل من أخـبار عـدل علي رضي الله عنه في الحكم على الناس، فـعلى الرغم مما جرى بينه وبين عـثمان رضي الله عنه من الخـلاف في آخر خلافتـه فإنه يثني على عـمله في جـمع المسلمين على مـصحف واحـد، ويُبَـرِّئه مما اتهمـه به المغرضون في حرق المصاحف.

---

(١) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين / ٦٤٠ - ٦٤٢.

(٢) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

وفي هذا الخبر إشارة إلى الغلو في النقد الذي ابتدعه الخوارج الذين خرجوا على عثمان رضي الله عنه، حيث حكموا عليه بأنه حرق المصاحف وتجاهلوا الأهداف السامية التي من أجلها ألغى المصاحف المتعددة وحصر الناس على مصحف واحد، فحولوا المحاسن إلى مساوئ والمناقب إلى مثالب، وهكذا النفوس إذا توجهت إلى النقد من غير أن تنضبط بموازين الإسلام فإن أصحابها يتجهون إلى الغلو وتغيير الحقائق والحكم بالجور على من توجهوا لنقده.

ولقد أثنى عليٌّ على عثمان كثيرًا ودافع عنه، فمن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر كليب الجرمي قال: كنا مع علي فالتفت إلى محمد بن حاطب فدعاه فتحول إليه فقال: إنَّ قومي إذا أتيتهم يقولون: ما قول صاحبك في عثمان؟ فسبَّه الذين حوله (يعني سبوا عثمان) قال: فرأيت جبين علي يرشح كراهية لما يجيؤون به، فقال محمد بن حاطب: كفُّوا، فو الله ما إياكم أسأل، فقال علي: أخبرهم أن قولي في عثمان أحسن القول، إن عثمان كان من الذين ﴿**آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [المائدة: ٩٣].

وكذلك ما أخرجه من خبر عاصم بن أبي النجود قال: دخلتْ إحدى بنات عثمان على عليّ فقال: إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى فيهم ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧].

وكذلك ما أخرجه من خبر يوسف بن سعد مولى عثمان بن مظعون قال: قال لي ابن حاطب: لو شهدت اليوم شهدت عجبا، قال: قلت: ما هو؟ قال: فإن عليا وعمارا ومالكا وصعصعة اجتمعوا في دار نافع، فذكروا عثمان فقال علي: يا أبا اليقظان لقد سبق في عثمان من رسول الله ﷺ سوابق لا يعذبه الله بعدها أبدًا[1].

فهذه أمثلة من الحكم بالعدل على الآخرين، وذلك بعدم النظر إلى الأخطاء وحدها وعدم التركيز عليها مع نسيان المحاسن، وإنما المنهج الصحيح أن يُنظر إلى محاسن الإنسان فإذا كانت كثيرة غالبة على أعماله فإن الأخطاء لا تعدُّ شيئا

(١) تاريخ دمشق ٣٩/ ٤٦٥ - ٤٦٧.

بجانبها، لأن الله تعالى يمحو السيئات بالحسنات، ولقد كان بعض الذين صحبوا عليا رضي الله عنه لا يفهمون هذا المنهج أو كانوا غافلين عن تذكُّره، فبيَّنه لهم علي رضي الله عنه وأوضح لهم أن الاهتمام في الحكم على الرجل يجب أن يكون مُنصبًّا على الكثير الغالب من أعماله، ولقد كان هذا المنهج غريبا عليهم حتى إنه أثار عجبهم، لأن تفكيرهم كان محصورا في تتبع الأخطاء وإبرازها والحكم على صاحبها من خلالها.

وقوله «لقد سبق في عثمان من رسول الله ﷺ سوابق لا يعذبه الله بعدها أبدا» يشير إلى أعماله العظيمة فى الإنفاق في سبيل الله تعالى، حيث أنفق على جيش العسرة في تبوك أموالاً لم يقاربه فيها أحد حتى أصبح يطلق عليه «مجهز جيش العسرة» وحتى قال فيه رسول الله ﷺ «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم».

وهذه مواقف تُذكر لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه حيث أوضح منهج الإسلام في الحكم على المخالفين، وعرف لأهل الفضل فضلهم وصحح المفاهيم الخاطئة حول هذا الأمر.

***

من مواقف عمران بن حصين رضي الله عنه

أخـرج الحاكم من خـبـر إبراهيم بن عطاء عن أبيـه: أن زيادًا أو ابن زياد بعث عمران بن حصين ساعيًا [أي يجمع الزكاة] فجاء ولم يرجع معه بدرهم، فقال له: أين المال؟ قال: وللمال أرسلتـني؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عـهد رسول الله ﷺ ووضعناها في الموضع الذي كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي[1].

فهذا مـثل من الحكم بالحق والوفاء بالمسؤولية على الوجـه المشروع، والعدل في إيصال الحقوق إلى مستحقيها، فالزكاة تؤخذ من أغنياء القوم ثم ترد على فقرائهم، كما أمـر بذلك رسول الله ﷺ، ولكن بعض الولاة فهـموا أنها جبـاية تُحمل إلى بيت مال المسلمين، ومنهم والي العـراق المذكور، فبين له عمـران بن حصين رضي الله عنه أنه بقيامه بـتقسيم الزكاة على الفقراء إنما قـام بتطبيق سنة رسول الله ﷺ، وهذا هو مقتضى الـعدالة والذي تحقق به مقاصد الزكاة، حـيث إن الفقراء ينظرون إلى أمـوال الأغنيـاء في بلادهم وينتظـرون الحق الشـرعي منهـا الذي ضـمنه لهم الإسلام عن طريق الزكاة، فإذا حُـملت الزكاة إلى الولاة فربما لا يصل إلى أولئك الفقـراء منها شيء، وذلك فيمـا إذا كان الوالي لا يفقه أحكام الشـريعة أو لا يريد تطبيـقهـا، أما إذا كان الوالي عـالمًا بأحكام الشريعـة مطبقًـا لها فإنـه ربما كان من مصلحة المسلمين حمل بعضها إليه بعد سـد حاجة فقراء البلد، وذلك ليصرفها في مصارفها الشرعية، ومن ذلك تجهيز المجاهدين كما فعل الصديق أبو بكر رضي الله عنه.

***

(١) المستدرك ٣/ ٤٧١.

من مواقف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر أبي قبيل قال: كان معاوية يبعث رجلاً يقال له أبو الجيش في كل يوم، فيدور على المجالس يسأل: هل وُلد لأحد مولود؟ أو قدم أحد من الوفود؟ فإذا أُخبر بذلك أُثبت في الديوان ليجري عليه الرزق[1].

فهذا مثل مما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه من التحري الدقيق في القيام بالمسؤولية التي وفقه الله إليها، فهو لا ينتظر من أبناء الأمة أن يغدوا إليه أو يراسلوه ليثبت لهم العطاء، بل كان يكلف من يسأل كل يوم عن المواليد والوفود، ولقد كان ذلك من أسباب سعادة الناس في عهده وتمتعهم بنعمتي الرخاء والأمن.

****

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٤.

من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله

استشارته فقهاء المدينة:

لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولَّى عمر بن العزيز على الحجاز من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين[1]؛ فقرَّب الفقهاء واستشارهم وفي ذلك يقول محمد بن سعد: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزّناد عن أبيه قال: لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة واليًا عليها كتب حاجبُه الناسَ ثم دخلوا فسلموا عليه، فلما صلّى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد: عُرْوة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثمّ قال: إني دعوتكم لأمر تُؤجَرون عليه وتكونون فيه أعوانًا على الحقّ، ما أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحدًا يتعدّى أو بلغكم عن عامل لي ظُلامة فأُحَرّج بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني. فجزّوه خيرًا وافترقوا[2].

وهذا الخبر يدلنا على قوة إيمان عمر بن عبد العزيز وحبه البالغ لتطبيق الإسلام كاملاً، حيث إن علماء الدين هم أخبر الناس بالإسلام، ففي استشارتهم والأخذ بحكمهم أمان من الوقوع في الخطأ والانحراف.

تذكيره بالحساب الأخروي:

نقل الحافظ ابن كثير عن الشعبي قال: حج سليمان بن عبد الملك، فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز: ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره!! فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم وهم خصماؤك عند الله، فبكى سليمان بكاء شديدًا، ثم قال: بالله أستعين[3].

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ١٣٩.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٣٤، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٤١.

(٣) البداية والنهاية ٩/ ١٨٧.

فهذا التذكر السريع من عمر بن عبد العزيز لمشاهد يوم القيامة يدل على عمق يقينه، حيث قارن سريعًا بين ما رآه من المشهد الدنيوي وما ينتظر من الحساب الأخروي، فذكَّر أمير المؤمنين سليمان بمسؤوليته عن جميع المسلمين.

وعظه سليمان بن عبد الملك في رد المظالم:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر مكي بن إبراهيم قال: كنا عند عبد العزيز بن أبي رواد في المسجد فارتفعت سحابة فجاءت برعد وبرق وصواعق، ففزع القوم فتفرقنا، فلما سكنتْ عدنا، فقال عبد العزيز: خرج سليمان بن عبد الملك يومًا إلى بعض البوادي فأصابهم نحو من هذا ففزع سليمان ونادى يا عمر يا عمر وكانوا - يعني بني أمية - إذا أصابتهم شدة فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز، فإذا عمر ينادي ها أنا ذا. قال: ألا ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين إنما هذا صوت نعمة فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أَوَ خير من ذلك يا أمير المؤمنين، قال وما هو؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لهم لم يصلوا إليك، قال: فجلس سليمان فرد المظالم[1].

وهكذا كان سلوك عمر بن عبد العزيز في التذكر والاعتبار عبرة لمن حوله، فقد كان لتذكيره سليمان بن عبد الملك بعذاب الله تعالى أثر في خشيته وإنابته، وقد كان من أثر ذلك أن وصل عمر إلى تذكيره بالعدل ورد الحقوق إلى أصحابها.

رغبته في التأسي بجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من خبر جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر[2]: أما بعد فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من هذا الأمر عن غير مشورة ولا طلب له ولكن كان ما قدر الله عز وجل فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث إلي بكتب عمر بن الخطاب وقضائه وسيرته في أهل العهد وأهل الذمة فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن أعانني الله على ذلك والسلام. فكتب إليه سالم:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٣٣.

(٢) جاء في كتاب الزهد «سالم بن عمر وصوابه ما أثبت لأن سالمًا هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب».

جاءني كتابك تذكر أن الله عز وجل ابتلاك بما ابتلاك به من هذا الأمر من غير طلب ولا مشورة كان منك ولكن ما كان قدَّر الله أن يبتليك، فأسأل الله الذي ابتلاك بما ابتلاك به أن يعينك عليه فإنك لست في زمان عمر وليس عندك رجال عمر فإن نويت الحق وأردته أعانك الله عليه وأتاح لك عمالاً وأتاك بهم من حيث لا تحتسب فإن عون الله على قدر النية فمن تمت نيته في الخير تم عون الله له ومن قصرت نيته قصر من العون بقدر ما قصر منه والسلام[1].

فهذا طموح من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما أراد التأسي بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أحكام أهل الذمة، حيث إنه في عهد قد تقررت هذه الأحكام فيه.

وما جاء في جواب سالم بن عبد الله بن عمر لا يُعدُّ تيئيسًا لعمر بن عبد العزيز، وإنما هو تذكير له بما يتطلبه ذلك التأسي من التكامل، حيث إن تطبيق الأحكام الشرعية لا يؤدي مقاصده إلا إذا كان الولاة الذين سيتولون التنفيذ على مستوى هذه الأحكام فهْمًا وقناعة ومقدرة على التنفيذ، وقد أشار سالم إلى ما يمحو هذا التيئيس ويفتح باب الأمل، وذلك بصلاح نية المسؤول الأعلى وتوجهه الصادق نحو الإصلاح، فإن صلاح النية في ذلك يترتب عليه عون الله تعالى وتوفيقه إلى اختيار هؤلاء الولاة المتقين الذين يكونون عونًا لأمير المؤمنين على معرفة الحق وتنفيذه.

اتخاذه رقباء على نفسه ليستقيم على الحق:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عمرو بن مهاجر قال قال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني، ثم قل: يا عمر ما تصنع؟![2].

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي حازم قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال: انظروا رجلين من أفضل من تجدون، فجيء برجلين، فكان إذا

(١) الزهد/ ٣٠١ - ٣٠٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٢٢.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٤٦.

جلس مجلس الإمارة ألقى لهما وسادة قُبالَه فـقال لهما: إنه مجلس شِرَة وفتنة فلا يكن لكمـا عمل إلا النظر إلي، فـإذا رأيتما مني شـيئًـا لا يوافق الحق فخـوفاني وذكراني بالله عز وجل[1].

فهذا مـثل من تصميمه على الحكم بالحق، وهو لـكونه يعرف ضعف بني آدم، وأن الإنسان يسير في هذه الحياة بين أعداء لدودين: نفسه الأمارة بالسوء التي تزين له اتبـاع الهوى، والشـيطان الرجيم الذي يـوسوس له ويخـادعه ويقلل في عـينه مسـالك الانحراف، ويضـخم في عينه مـهابة النـاس، وشياطين الإنس الـذين ما يزالون يفتلون له في الذروة والغارب ليسقطوا على مواقع الضعف فيه فينفذوا منها إلى السيطرة عليه وتسخيره لباطلهم، فهو لكونه يعرف ذلك كله لم يعتمد على ما يرى من قوة إيمانه وعـزمه الأكـيد على تنفيـذ الحق ودحر الباطـل، بل جعل على نفسه رقباء من أهل التقوى بعيدًا عن ساحـة المعركة التي يخوضها هو ليدرك ما قد يفوته أو يغلب عليه من مناحي الانحراف عن الطريق المستقيم.

وفي تعبيره عن الطريقة التي أرشد إلـيها ذلك الأخ في الرواية الأولى في تنبيهه إلى الحق مثل من تواضـعه الكبير، وتجـرده من حظ النفس، واعتباره تنفـيذ الحق أعلى من مراعاة الجاه والمنزلة الاجتماعية.

ما قام به من رد المظالم:

قال ابن عبد الحكم – في بيـان ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عـبد العزيز بعد توليه الخلافـة: واحتجب عن الناس ثلاثًا لا يدخل عليه أحـد، ووجوه بني مروان وبني أمية وأشـراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينظرون ما يـخرج به عليهم منه، فجلس للـناس بعد ثلاث وحملهم عـلى شريعة من الحق فـعرفوهـا، فرد المظالم وأحيا الكتاب والسنة وسـار بالعدل، ورفض الدنيا وزهد فيها، وتجـرد لإحياء أمر الله عز وجل، فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل فرحمه الله[2].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٤٦ – ١٤٧.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤٠.

وهكذا رسم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سياسته التي سيسير عليها، حيث أحصى المظالم فردها إلى أصحابها، وكان قويًا في فرض الحق، فلم يخش المعارضين مع كثرتهم وتحزبهم، ولم يخش أحدًا من الظلمة، لأنه كان يخشى الله تعالى وحده، حيث أصبح قلبه مملوءًا بالإيمان بالله جل وعلا وحبه وخشيته، ولم يكن لمراكز القوى المحيطة به أي أثر في صده عن تنفيذ الحق، لأن قلبه قد تجرد للإيمان بالله تعالى وحده فلم يستطع الشيطان أن يغريه بالدنيا ولا أن يخيفه بأصحاب النفوذ ولا من وراءهم من طلاب الدنيا.

بدؤه بنفسه وأهل بيته:

ومن عدالته أنه بدأ بنفسه وأهل بيته، وفي ذلك يقول أبو بكر بن أبي سبرة: لما رَدَّ عمر بن عبد العزيز المظالم قال: إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي، فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع فخرج منه، حتى نظر إلى فص خاتم فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب، فخرج منه[1].

ومن ذلك ما جاء في قول عبد المجيد بن سهيل: رأيت عمر بن عبد العزيز بدأ بأهل بيته فرد ما كان بأيديهم من المظالم ثم فعل بالناس بعد[2].

ولقد سهَّل على الناس وصول حقوقهم إليهم، وفي ذلك يقول أبو الزناد: وكان عمر يرد المظالم على أهلها بغير البينة القاطعة، كان يكتفى بأيسر من ذلك، إذا عرف وجهًا من مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما كان يعرف من غشم الولاة[3].

من كتاباته في رد المظالم:

ومن كتاباته إلى الولاة في رد المظالم ما رواه عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في رد المظالم إلى أهلها، فرددناها حتى أنفدنا ما في بيت مال العراق، وحتى حمل إلينا عمر المال من الشام[4].

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤١.
(٢) المرجع السابق ٥/ ٣٤١.
(٣) المرجع السابق ٥/ ٣٤٢.
(٤) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢.

وكذلك ما جاء في خبر أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والي المدينة قال: كتب إلي عمر بن عبد العزيز: أن استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فرده عليه فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم.

وجاء في هذا الكتاب - كما ذكر موسى بن عبيدة - وإياك والجلوس في بيتك، اخرج للناس فآسِ بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم، وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلي فيه[1].

وهذا من كمال عدله ومساواته بين المسلمين، وذلك يدل على قوة إيمانه ورجاحة عقله.

ولقد كان رد المظالم عملاً كبيرًا استغرق خلافة عمر بن عبد العزيز كلها كما جاء في خبر سليمان بن موسى قال: ما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات[2].

حرصه على الإسراع في رد المظالم:

ولقد كان حريصًا على الإسراع برد المظالم إبراءً للذمة وخوفًا من حلول الأجل قبل إكمال ذلك، ومن أخباره في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أيوب ابن موسى قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة عامله على اليمن: أما بعد فأني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولا تعرف بُعْدَ مسافة ما بيني وبينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت: أرددها عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني[3].

وهكذا بين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لواليه على اليمن عروة بن محمد ابن عطية السعدي أهمية الإسراع في رد المظالم وأن لا يضيع الوقت بالكتابات

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢ - ٣٤٣.
(٢) المرجع السابق ٥/ ٣٤١.
(٣) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨١.

الاستفسارية عن أمور واضحة، وفي هذا لفت نظر إلى أن من أسباب نجاح الوالي أن يتصرف بـاجتهاده في الأمور التي لا غـموض فيهـا ولا لبس، من باب كسب الوقت والسرعة في الإصلاح.

مثل من صرامته وما لقي من عشيرته:

أخرج الحافظ أبو نعيـم الأصبهاني من خبر إسمـاعيل بن أبي حكيم قال: أتى عمر بن عـبد العزيز كتـاب من بعض بني مروان فأغضبـه ثم قال: إن لله في بني مروان ذبحًا، وايم الله لئن كان الذبح على يدي.. فلمـا بلغهم ذلك كفوا، وكانوا يعلمون صرامته وأنه إن وقع في أمر مضى فيه[1].

وقوله «إن لله في بـني مروان ذبحًا» لعلـه أخذه من سنة الله تعالـى الجارية في الانتقام من الظالمين، وأن الله سبـحانه يمهلهم بعض الوقت ولا يهملهم، فإذا أراد الانتقام منهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

مساواته بين عشيرته وسائر المسلمين:

ذكر الحافظ ابن الجـوزي مـن خـبر الإمـام الأوزاعـي قال: لمـا قطع عمر بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم تكلم في ذلك عنبسة بن سعيد فقال: يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة، قال: لن يتسع مالـي لكم، وأما هذا المال فحقكم فـيه كحق رجل بأقصى برك الغـماد، فلا يمنعه من أخـذه حقه إلا بُعْد مكـانه، والله إني لأرى أن الأمور لو استحـالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله[2].

وهذا مثل من كمال عدله حيث تنزه عن محاباة عشيرته، وفي إخباره عن نزول عذاب الله تعـالى تصوير لسنة من سـنن الله جل وعلا، وذلك أنه كلمـا تمحضت الأرض للشر كـانت مهددة بنزول عـذاب من عند الله تعالى، ولكنه سبـحانه يدرأ عنها العـذاب استجـابة لدعاء الصالحين، ولذلـك فإن المؤمن الحق يستـأنس بكثرة الصالحين، ويستوحش من كثرة الفاسقين والمفسدين في الأرض.

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٩٥.

وذكر الحافظ أبو نعيم من خبر عمر بن مقدم قال: قال ابن سليمان بن عبد الملك لمزاحم: إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر، قال فاستأذنت له فقال: أدخله، فأدخلته على عمر فقال ابن سليمان: يا أمير المؤمنين علام ترد قطيعتي؟ قال: معاذ الله أن أرد قطيعة صحت في الإسلام. قال فهذا كتابي وأخرج كتابًا من كمه، فقرأه عمر فقال: لمن كانت هذه الأرض؟ قال للفاسق ابن الحجاج. قال عمر: فهو أولى بماله، قال: فإنها من بيت مال المسلمين، قال: فالمسلمون أولى بها قال: يا أمير المؤمنين رد علي كتابي، قال: لو لم تأتني به لم أسألكه، فأما إذا جئتني به فلا ندعك تطلب بباطل، فقال: فبكى ابن سليمان، قال مزاحم: فقلت: يا أمير المؤمنين ابن سليمان اللائط الحب[1] اللازق بالقلب تصنع به هذا؟ قال: ويحك يا مزاحم إنها نفسي أحاول عنها، وإني لأجد له من اللوط ما أجد لولدي[2].

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فى تجاذب نفسي بين مقام العدل بعدم تخصيص أفراد عشيرته بشيء دون أفراد الأمة وبين مقام الرحمة بمن يحبهم من أفراد عشيرته ممن يشعرون بأنهم قد تضرروا بحكمه، ولكن ليس هناك مجال للموازنة بين الأمرين لوضوح وجوب العدل وعدم الالتفات إلى عاطفة النفس لأن عاقبة ترك الواجب خضوعًا للعاطفة هي الهلاك في الآخرة، ولا يمكن عقد مقارنة بين الدنيا والآخرة.

إنصافه الرجل الحمصي من العباس بن الوليد:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: لما دفن عمر سليمان صعد إلى المنبر فقال «إني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك» فنزل فدخل فأمر بالستور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحُملتْ وأمر ببيعها وإدخالها - أو قال إدخال ثمنها - بيت المال، ثم ذهب يتبوأ مقيلا، فقال ابنه عبد الملك تقيل ولا ترد المظالم؟ قال أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا

(١) أي الشديد الحب من لاط يلوط لوطا.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١ - ٢٨٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي /٩٨.

صليت الظهر رددت المظالم، قال: من لك أن تعيش إلى الظهر؟ فخرج ولم يَقِلْ، فأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية، فقال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، قال وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي - والعباس جالس- فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلاً، فقال ما تقول يا ذمي؟ قال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، اردد عليه يا عباس ضيعته، فرد عليه، فجعل لا يدع شيئًا مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة[1].

فهذا الخبر والذي قبله مثلان من صرامة عمر بن عبد العزيز وحزمه في تطبيق الأحكام الشرعية، فهو لين رحيم فيما يتعلق بنفسه ولكنه قوي شديد فيما يتعلق بأحكام الله تعالى.

وفي هذين الخبرين مثل من انقلاب المفاهيم عند أهل الدنيا، فالحق عند هذين الرجلين المعتديين هو ما قرره أبواهما الوليد وسليمان وإن كانا ظالمين معتديين من غير نظر فيما ينجيهما من المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة، وما أعظم خسارة هؤلاء الذين يعتدون على أموال الناس ولا يردعهم من ذلك إلا قوة السلطان!! فإنهم قد خسروا دنياهم لانتزاعها منهم بالقوة وخسروا آخرتهم لأنهم ليس لهم نية في إنصاف المظلومين ورد حقوقهم إليهم.

نزعه إقطاع أحد الرجال:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني: حدثني أبي عن جدي قال: كنت عند هشام بن عبد الملك جالسًا، فأتاه رجل فقال يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها، فقال له هشام أعد مقالتك فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان، حتى إذا استخلف عمر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٨٦.

رحمه الله نزعها، فقال والله إن فيك لعجبا، إنك تذكر من أقطع جدك قطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليهم وتذكر من نزعها فتترحم عليه، وإنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله[1].

في هذا الخبر موقفان أحدهما لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حيث رد ذلك الإقطاع الذي أُعطيه ذلك الرجل بغير حق إلى بيت مال المسلمين.

والثاني موقف لأمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله تعالى، حيث حكم بالحق ولم تأخذه العصبية لأبيه عبد الملك وأخويه الوليد وسليمان فأقر حكم عمر ابن عبد العزيز، وقد تعجَّب من ذلك الرجل المتظلم حيث ترحَّم على عمر بن عبد العزيز الذي نزع منه القطيعة ولم يترحَّم على عبد الملك الذي أقطع جده تلك القطيعة ولا على الوليد وسليمان اللَّذَين أقراها، وهذا يعني أن هناك إحساسًا لدى أفراد الأمة بعدالة عمر بن عبد العزيز وصلاحه حتى بالنسبة لمن تضرروا منه في دنياهم.

مثل من حكمته وموقف لابنه عبد الملك:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر جويرية بن أسماء. قال: قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: ما يمنعك أن تَنفُذ لرأيك في هذا الأمر؟ فوالله ما كنت أبالي أن تغلي بي وبك القدور في إنفاذ هذا الأمر، فقال عمر: إني أرُوض الناس رياضة الصعب، فإن أبقاني الله مضيت لرأيي، وإن عجلت علي منية فقد علم الله نيتي، إني أخاف إن بادرت الناس بالتي تقول أن يلجئوني إلى السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف[2].

وأخرج الحافظ أبو نعيم من طريقين: أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على عمر فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فأخْلِني - وعنده مسلمة بن عبد الملك - فقال له عمر: أَسِرٌّ دون عمك؟ فقال نعم، فقام مسلمة وخرج، وجلس بين يديه فقال له: يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٤٥.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١.

رأيتَ بدعة فلم تمتها، أو سنة لم تحيها؟ فقال: له يا بنى أشيء حمَّلتْكَه الرعية إلي، أم رأي رأيته من قبل نفسك؟ قال: لا والله ولكن رأي رأيته من قبل نفسي، وعرفت أنك مسؤول فما أنت قائل؟ فقال له أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيرا، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير، يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقا تكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أوَ ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟[1].

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حكيمًا يوازن بين المصالح والمفاسد، فلا يتجه إلى تغيير منكر يترتب عليه منكر أكبر منه، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فبقاء الناس على ما هم فيه من بعض الظلم أولى من سفك دماء المسلمين إذا كان رد المظالم بسرعة سيترتب عليه ذلك، ولكن الحكمة تقتضي التمهل في ذلك وسياسة الناس بالتدرج حتى ترجع الحقوق إلى أصحابها ويرتدع الظالمون دون حدوث فتنة دموية.

ولقد كان ابنه عبد الملك شديد التحمس لرد المظالم دفعة واحدة فهو شاب قوي الإيمان، لكنه لم يكن في مستوى أبيه من الحكمة والفقه في تطبيق الأحكام الشرعية.

حواره مع هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بشر بن عبد الله بن عمر عن بعض آل عمر أن هشام بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما أكلمك به، إنهم يقولون استأنفَ العمل برأيك فيما تحت يديك، وخلِّ بين من سبقك وبين ما ولوا ممن كانوا يلونَ أمره بما عليهم ولهم فقال له عمر: أرأيت لو أُتيتُ بسجلَّين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد فبأي السجلين كنت آخذ؟ قال: بالأقدم ولا أعدل به شيئًا،

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١ - ٢٨٣.

قال عمر: فإني وجدت كـتاب الله الأقدم فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي في مالي وفيما سبقني.

فقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عـثمان: يا أمير المؤمنين امض لرأيك فيما وليت بالحق والعـدل، وخل عمن سبـقك وعما ولي خـيره وشـره، فإنك مكتف بذلك. فقال له عـمر: أنشدك الله الذي إليه تعـود أرأيت لو أن رجلاً هلك وترك بنين صغارًا وكبـارًا فعزَّ الأكابر الأصاغر بقوتهم فأكلوا أمـوالهم، فأدرك الأصاغر فـجاؤوك بهم وبما صنعـوا في أمـوالهم ما كنت صـانعًـا؟ قال: كنت أرد عليـهم حقوقـهم حتى يستوفوها. قال: فـإني قد وجدت كثيـرًا ممن قبلي من الولاة عزُّوا الناس بقـوتهم وسلطانهم. وعَزَّهم بـها أتبـاعهم. فلمـا وليت أتوني بذلك، فلم يسعْني إلا الرد على الضعيف من القوي، وعلي المسـتضعَف من الشريف. فقال: وفقك الله يا أمير المؤمنين[1].

فهـذان جوابان جليلان من أميـر المؤمنين عمر بن عـبد العزيز استطاع بهـما أن يسكت هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان اللذين حاوراه فيما قام به من رد المظالم فـقد سكت هشام ووافق سعيـد بن خالد ودعا لعمـر بن عبد العزيز، وهذا دليل على أن أولـئك القوم الذين ورثوا الظلم يدركون أن مـا تقدم به الولاة السابقون كـان ظلما، ويريدون من عمر بن عبـد العزيز أن يترك الناس على مظالمهم فإنه ليس مسؤولاً عن ظلم من سبقه وأن يهتم فقط بتنزيه نفسه عن مباشرة الظلم، ولكنه أفهمهم بأنه لو أقر ظلم من سبقوه يكون شريكًا لهم في ظلمهم.

خطبته أمام الغرباء:

من مواقفـه في العدل قوله في خطبة خـاطب بها الغرباء فقـال: يا أيها الناس الحقوا ببلادكـم فإني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم، وإني قد اسـتعملت عليكم رجالاً لا أقول هم خياركم، ولكنهم خيـر ممن هم شر منهم، ألا فمن ظلمه إمامه فلا إذن له عليّ، ومن لا فـلا أرينَّه، ألا وإني منعت نفسي وأهـل بيتي هذا المال، فـإن ضننت به عنكم إني إذًا لضنين، والله لـولا أن أُنْعِشَ سنَّة أو أَسِيـرَ بحقّ مـا أحببت أن أعيش فيكم فواقا[2].

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨٢.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبدالحكم/ ٤٢، والفواق قدر حلب الناقة، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٤٤، ٥٨، وتاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٠.

وقول عمر بن عبد العزيز للغرباء: «فإني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم» دليل على ضبطه لأمور رعيته، وذلك بتولية الولاة الأكفاء الذين يتفقدون أحوال الرعية ويرفعون حوائجهم لأمير المؤمنين مع متابعته لهم.

وقد بقي الغرباء في عاصمة الدولة ظنّا منهم أنَّ الولاة سينسونهم كما نسيهم الولاة السابقون، وقد بين لهم عمر أنه لم يأل جهدًا في اختيار الولاة الأكفاء الذين على أيديهم يتم صلاح الرعية.

ثم ذكر أن بابه مفتوح لسماع شكوى المظلومين الذين لم يستطع الولاة أن يرفعوا عنهم الظلم، أو وقع الظلم عليهم من الولاة أنفسهم.

أما من ليس له مظلمة وليس لديه مشورة أو إصلاح يهمُّ الأمة فليس من المصلحة أن يتردد على المسؤول، لأن في ذلك إضاعة وقت عليهما، وذلك يترتب عليه إضاعة مصلحة المسلمين العامة، إضافة إلى أن المسلم مسؤول عن كل دقيقة تمر عليه بغير فائدة، ومن ذلك مراجعة المراجعين في قضايا يعلمون سلفًا أنهم لن يحصلوا فيها على شيء فإن ذلك لا فائدة فيه بل فيه ضرر إضاعة الوقت عليهم وعلى المسؤولين.

ثم يتحدث عن المال الذي هو عصب الحياة، والذي من أجله يقتتل المتنافسون على الدنيا، فيُطَمئن الرعية إلى أنه ليس من المعقول أن يحرم منه نفسه وعشيرته ثم يحبسه عن الأمة.

إن الذي كان يحرم بعض الأمة من مال الدولة قبل عهد عمر كون الولاة على مختلف مستوياتهم ومن حولهم من المستفيدين منهم قد تمتعوا بنصيب كبير من ذلك المال إلى حد الإسراف والتبذير، فحينما جعل أمير المؤمنين عمر نفسه وعشيرته كأي فرد من أفراد الرعية فإن بقية الولاة سيسيرون على سنته، وبالتالي سيتوافر مال كثير يعود على المحتاجين من الأمة، وقد حدث ذلك فعلاً حيث كان الأغنياء يدورون بصدقاتهم في عهد عمر يبحثون عن الفقراء فلا يجدونهم، قد أغنى عمر الناس وفاض بيت مال المسلمين، كما جاءت الرواية بذلك.

ثم بين أنه ليس حريصًا على البقاء في الحكم إلا لهدفين: إحياء السُّنن بعدما أُميتت، والحكم بالحق بعدما عم الباطل كثيرًا من أرجاء الأرض، وهكذا يفهم عمر

الولاية على أنها عـمل صالح يتقـرب به إلى الله عز وجل، ومَنْ فـهم هذا الفهم فإنه بعيد منه أن يظلم أو أن ينحـرف عن طريق الحق، لأنه لو فعل ذلك لحصل له نقيض قصده، حيث سيكسب بالولاية أعمالاً سيئة، فيخسر في الوقت الذي يكون هدفه أن يربح ويفلح.

رده منحة عنبسة بن سعيد:

من مواقفه الجـريئة رحمه الله، عدله في توزيع مال المسلمين ورفـضه تخصيص أفراد عشيرته بشيء من ذلك، ومن أخبـار ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم في أخباره عن شيوخه قال: ولما ولي عمر بن عـبد العزيز رد المظالم والقطائع، وكان سليمان ابن عبد الملك قد أمـر لعنبسة بن سعيد بن العـاص بعشرين ألف دينار فدارت في الدواوين حتى انتـهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضـها فتوفي سليـمان قبل أن يقبضها وكان عنبسة صديقًا لعمر بن عبـد العزيز، فغدا عنبسة يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان، فوجد بني أمية حـضوراً بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه في أمورهم، فلما رأوا عنبـسة قالوا: ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمـه. فقالوا له: أَعْلِمْ أميـر المؤمنين مكاننا، وأعلمنا ما يصنع بـك في أمورك، فدخل عنبـسة على عمر فقال له: يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم، ولم يبق إلا قبضـها، فتوفي على ذلك، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندي، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمـان، قال له عمر: كم ذلك؟ قـال: عشرون ألف دينار، قـال عمر: عشرون ألف دينار تُغني أربعة آلاف بيت من المسلمـين، وأدفعها إلى رجل واحد! والله مالي إلى ذلك من سبـيل، قال: فرميت بالكتاب الذي فيـه الصك، فقال لي عمـر: لا عليك أن يكون مـعك فلعله أن يأتيك من هو أجـرأ على هذا المال مني فيأمر لك بها.

قال عنـبسة: فـأخذته تبـركًا برأيه، وقلت لـه: يا أمير المؤمـنين فما بـال جبل الورس؟ وكان جبل الورس قطيعة لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر: ذكّرتني الطعن وكنت ناسيًا، يا غلام هلم ذلك القفص فأُتي بقـفص من جريد فيه قطائع بني عبد العزيز فقال: يا غـلام اقرأ علي، فكلما قرأ قطيعة قال: شـقَّها، حتى لم يبق في

القفص شيء إلا شـقه، قال عنبـسة: فخـرجت إلى بني أمية وهم وقـوف بالباب فأعلمتهم ما كان من ذلك فـقالوا: ليس بعد هذا شيء، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلـدان، فرجـعت إليه فـقلت: يا أمـير المؤمـنين إن قومك بالبـاب يسألونك أن تجري عليهم ما كان من قبلك يُجرى عليهم، فقال عمر: والله ما هذا المال لي ومالي إلى ذلك من سبيل، قلت: يا أمـير المؤمنين فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في البلدان، قـال: ما شاؤوا ذلك لهم، وقـد أذنت لهم، قال قلت: وأنا أيضًا، قال: وأنت أيضًـا قد أذنت لك، ولكن أرى لك أن تقيم فإنك رجل كـثير النقد وأنا أبيع تركة سليـمان فلعلك أن تشتري منها مـا يكون لك في ربحه عوض مما فاتك، قال: فأقمت تبركًا برأيه فابْتَعت من تركة سليمان بمائة ألف فخرجت بها إلى العراق فـبعتها بمِئَـتَيْ ألف، وحبست الصك فلمـا توفي عـمر وولـي يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فأنفذ لي ما كان فيه[1].

في هذا الخـبر بيـان جرأة الولاة قبـل عمر بن عـبد العـزيز وبعده علـى أموال المسلمين، فكان الولاة يخصـون عشائرهم وكـبار أهل الدنيا الذين يخـشون منهم بكثير من هذا المال، ومن ذلك مـا أمر به سليمان لعنبسة بن سعـيد ولكن عمر رد تلك المنحة وبين أنهـا تكفي لأربعة آلاف بيت من المسلمين، فكيف يعطيـها لرجل واحد؟

إن إعطاء القلة من ذوي النفوذ تلك العطايا الكبيرة على حساب بقاء أفراد الأمة في حاجة ومسغـبة يُعدُّ ظلمًا وإجحافًا كبيـرًا، وهذا هو أهم الأمور التي نذر عمر نفسه للقضاء عليها.

لقد كان يدور في الأوسـاط السياسية آنذاك بأنه لا يصلح لسيـاسة الأمة إلا من كان نهابا وهابا، حـيث يقوم بنهب أموال الأمة العـامة ليستمـيل بها بعض الأكابر الذين يقومون بحمـاية الدولة وفرض سيطرتها ولكن عمر بـن عبد العزيز نجح في سياسته الإسلاميـة نجاحًا كبيرًا، وقد كان عفيفًا وهابًا، كـان عفيفًا عن أموال الأمة العامة، وهابًا للمال للمحتاجين من الأمـة ومن يقومون بأمرها بالقصد والاعتدال، ومع أنه قد منع الأقـوياء وأصحاب النفوذ مـن الخصوصيـات التي كانت تمنح لهم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /٥٨.

فإنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا ضد دولته مع حرصهم على ذلك، لأن دولته أصبحت محصنة من جميع أفراد الأمة الذين رُدَّت لهم حقوقهم، وتحسنت أحوالهم المعيشية.

وحينما ذكَّره عنبسة بن سعيد بجبل الورس وهو أحد الإقطاعات التي آلت إليه من ولاة العهد السابق تمثل بالمثل المشهور: «ذكَّرتني الطعن وكنت ناسيًا» فدعا من فوره بأوراق الإقطاعات التي تخص بني عبد العزيز بن مروان فشقها جميعها.

وهو بهذا يبين للمستفيدين من الوضع السابق أنه أول من يطبق السياسة الإسلامية على نفسه وأسرته.

ولهذا يئس بنو قومه من عودتهم إلى ما كانوا عليه من خصوصيات مالية، واستأذنوه في السفر ليعملوا في التجارة كما يعمل غيرهم من أبناء الأمة.

إنصافه أحد الرعية من عامله عروة:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: واستعمل عمر بن عبد العزيز عروة بن عياض بن عدي على مكة، فخرج عمر من مكة، وخرج معه من خرج يشيعه حتى نزل بمَرٍّ[1] ومعه عروة فجاء رجل فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، ظُلمت ولا أستطيع أن أتكلم، فقال عمر: ويحه أُخذَتْ عليه يمين ثم قال: إن كنت صادقًا فتكلم فقال: أصلحك الله، هذا - وأشار إلى عروة - سامني بمال لي وأعطاني به ستة آلاف درهم، فأبيت أن أَبيعه فاستعداه عليَّ غريم لي فحبسني فلم يخرجني حتى بعته مالي بثلاثة آلاف درهم، واستحلفني بالطلاق إن خاصمته أبدًا، فنظر عمر إلى عروة ثم نكت بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال هذه غرتني منك ثم قال للرجل: اذهب فقد رددت عليك مالك ولا حنث عليك[2].

وهكذا ابتلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ببعض الولاة الذين انخدع بمظهرهم الدينى، فكانت سرائرهم تختلف عن علانيتهم، فهذا الوالي الذي ولاه عمر على مكة كان يظن أنه من العابدين، ومن كانوا كذلك فلا يُتوقع منهم أن

(١) يعني مَرَّ الظهران وهو مكان قرب مكة.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٤.

يرتكبوا شيئًا من ظلم العبـاد، ولكنه وقع في الظلم المذكور في الخبر وأحاط ظلمه بما يكفل له عـدم وصول خبـره إلى أمير المؤمنين، ولكن ذلك المـظلوم وصل إليه وقدَّم له شكواه فـأنصفه، ولم يكن أمـير المؤمنين بحاجة إلـى استفتـاء العلماء في موضـوع الطلاق المذكور لأنه كان من أبرز علمـاء عصره، فلذلك أفتـاه في الحال بعدم وقوع الطلاق عليه لأنه مكره، ولا يقع الطلاق مع الإكراه.

إنصافه أهل سمرقند:

أخرج الإمام ابن جرير الـطبري من خبر طفيل بن مرداس قـال: كتب عمر إلى سليـمان بن أبي السَّـريّ: أن اعمل خـانات في بلادك فمَنْ مـرَّ بك من المسلمين فاقْرُوهم يومًـا وليلة، وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به عـلة فاقْرُوه يومين وليلتين، فإن كان منقطعًا به فقوُّوه بما يصل به إلى بلده.

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند لسـليمان: إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهـر الله العدل والإنصاف فأْذَن لنا فـليَفِدْ منا وفد إلى أمـير المؤمنين يشكون ظلامتنا، فـإن كان لنا حق أُعطيناه، فإنَّ بنا إلى ذلك حـاجة، فأَذِن لهم، فوجهوا منهم قومًا فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري: إن أهل سمرقند قد شكوا إليَّ ظلمًا أصابهم، وتحاملاً من قـتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كـتابي فأَجلسْ لهم القاضي فلينظر في أمـرهم، فإن قضى لهم فأخْرِجْهم[1] إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة.

قال: فأجلس لهم سليمان جُمَيْعَ بـن حاضر القاضي الناجي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحًا جديدًا أو ظفرًا عنوة، فقال أهـل السُّغد[2]: بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حـربا، وتراضوا بذلك، فقـال أهل الرأي: قد خـالطنا هؤلاء القوم وأقـمنا معهم، وأمِنونـا وأمنّاهم، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظـفَر، وإن لم يكن لنا كنا اجتلبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا[3].

(١) يعني المسلمين الغزاة.
(٢) السغد قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر.
(٣) تاريخ الطبري ٦/٥٦٧ - ٥٦٨.

فهذا مثل من عدل عمر بن عبد العزيز واهتمامه بأمور الأمة، وإننا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور:

أولها: أن الناس يُقبلون على التظلُّم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجدّ وسيُنظر فيها بعين العدل، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان، فلما رأوا عدل عمر بن عبد العزيز رفعوا قضيتهم.

ثانيها: أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسؤولين، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد، والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

ثالثها: أن أولئك القوم قد أُسقط في أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين، سواء حكم لهم أو عليهم، وأن مصلحتهم في بقائهم على ما هم عليه، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي.

كتابه إلى عمر بن الوليد:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى: وقال سليمان بن داود الخولاني: إن عمر بن عبد العزيز كان يقول: ياليتني قد عملت فيكم بكتاب الله، وعملتم به، فكلما عملت فيكم بسنةٍ وقع مني عضو، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي.

ولما أقبل عمر على رد المظالم وقطع عن بني أمية جوائزهم وأرزاق أحراسهم، ورد ضياعهم إلى الخراج، وأبطل قطائعهم فأفقرهم ضجّوا من ذلك فاجتمعوا إليه فقالوا: إنك قد أخليت بيت مال المسلمين، وأفقرت بني أبيك فيما تردّ من هذه المظالم، وهذا أمرٌ قد وليه غيرك قبلك، فدعهم وما كان منهم، واشتغل أنت وشأنك واعمل بما رأيت. قال لهم: هذا رأيكم؟ قالوا: نعم. قال: ولكن لا أرى

ذلك، والله لَوَددت أن لا تبـقى في الأرض مَـظلْمـة إلا رددتهـا، على أن لا أرد مظلمة إلا سقط لها عـضوٌ من أعضائي أجد أَلمه، ثم يعود كما كـان حيّا، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سـالت نفسي عندها. قال: فخـرجوا من عنده فدخلوا على بعض ولد الوليد -وكان كبـيرهم وشيخهم[1]- فسألوه أن يكتب إلى عـمر يوبِّخه لعلَّه أن يردَّه عن مساءتهم فكتب إليه.

أما بعد فإنك أزرَيت بمن كان قبلك من الخلفاء، وسرت بغـير سيرتهم وسميتَها المظالم تنقصًـا لهم، وعيبًـا لأعمالهم، وشنآنًا لمن كـان بعدهم من أولادهم. ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل، وعـملت بغير الحق في قرابتك، وعَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم، فأدخلتها بيت مالك ظلمًا وجورًا وعدوانًا فـاتَّق الله يا ابن عبـد العزيز وراقبـه فإنك قد شططت، لم تـطمئن على منبرك، حتى خـصصت ذوي قرابتك بالقطيعة والظلم، فوالله الـذي خصَّ محمدًا ﷺ بما خصه به من الكرامـة، لقد ازددت من الله بعدًا في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاءٌ عليـك وهي كذلك. فاقـتصد في بعض مـيلك وتحاملك. اللهم فـاسأل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد ﷺ حين استخلفك عليهم.

قال فكتب عمر بن عبد العزيز إليه، من عمر أمير المؤمنين إلى فلان بن الوليد. سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأما بعد فـإن أول أمرك يا فلان أن أمـك بنانة أمة السكوني كانـت تدخل دور حمص وتطوف حوانيتـها والله أعلم بها فاشتـراها دينار بن دينار من فيء المسلمين فأهداها إلى أبيك فحملتْ بك فـبئس المحمول وبئس الجنين، ثم نشأت فكنت جبـارًا شقيّا كتبت إليَّ تُظلِّمني وزعمت أن حُرمـتك وأهل بيتك في مال المسلمين الذي فيه حق القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل، وإنما أنت كأحد منهم لك ما لهم وعليك ما عليهم، وإن أظلم مني وأترك لعـهد الله الذي استعملك صبيّا سـفيهًا تحكم في دماء المسلمين وأموالهم برأيك لم تحضره نية، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ولم يكن ذلك له، ولا حـق له فـيـه، فويـلك وويل أبيك مـا أكـثـر طلابكمـا وخصماءكمـا يوم القيامة! وكيف النجاة لمن كثـر خصماؤه؟ وإنَّ أظلم مني وأترك

(١) هو عمر بن الوليد بن عبد الملك كما جاء في رواية ابن الجوزي.

لعهد الله من جـعل لفلانة البربرية سهمًا في فيء المسلمين وصـدقاتهم. أهاجرتْ ثكلتك أمك أم بايعتْ بيـعة الرضوان فـتستـوجبَ سهام المقـاتلين؟ وإنَّ أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرَّة بن شريك أعرابيّا جلفا جافيا على مصر، وأذن له في المعازف والبرابط والخمر، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من ولَّى يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب يجبي المال الحرام ويسفك الدم الحرام. رويدك فإنه لو قد التقت علينا حَلْقَـتا البطان، وطالت بي حيـاةٌ، وردَّ الله الحق إلى أهله تفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمتكم على المحجة البيضاء فطال ما أخذتم بُنَيَّات الطريق، وتركتم الحق وراءَكم، ومما وراءَ هذا ما أرجـو أن يكون خير رأي أَبُتُّه بيع رقبـتك فإن لكل مسلم فيك سهمًا في كتاب الله، والسلام على من اتبع الهدى، ولا ينال سلام الله الظالمين[1].

في هذا الخبر مثل من قوة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تنفيذ الحق، وأنه لا يخشى في الله لومة لائم.

وفي مقارنة واضـحة بين أعماله التي أنجزها في العدل وإنصـاف عامة المسلمين من كبـرائهم، وبين أعمـال بعض من سبـقه من الولاة في ظـلم العامة ومـداهنة الكبراء.

وفيـه مثل من تدنِّي مسـتوى الفهم وعـمى البصيرة عنـد من استمرأ الجـبروت والطغيان، حيث قلَـب ابن الوليد الحقائق، فجعل العدل ظلـمًا وعَدَّ الظلم عدلاً، لأن العـدل في نظره أن يأخذ هو وأمـثاله حـريتهم الكاملة في الـتصرف بـأموال العامة، وعَدَّ تطبيق العدالة عليـهم نوعًا من قطيعة الرحم، ولو أدرك وعقل لعرف أن أعظم صلة الرحم أن يمنع الإنسـان أقاربه من المعاصي، وأن يدلـهم على طاعة الله تعالى.

وهذا الخلط في المفاهيم والموازين ناتج من غلبـة النظر إلى الدنيا على النظر إلى الآخرة، وحينما تكون الآخرة حاكمة على الدنيا يصفو الفكر ويستقيم السلوك.

---

(١) سيـرة عمـر بن عبد الـعزيز لابن عبـد الحكم/ ١٤٧ - ١٥١، وانظر سيـرة عمـر بن عبد الـعزيز لابن الجوزي/ ٩٣.

ولقد كان أمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز شديدًا في رده على هذا الرجل لأنه في نظر عمر قـد بلغ من الجفاء والتجـبر حدًا لا يجدي معـه خطاب العقل ونداء الحس الإيماني.

جوابه لعنبسة حينما سأله:

قال أبو محـمد عبد الله بن عـبد الحكم: قال عمـر بن عبد العزيز لعنـبسة بن سعـيد - وسأله حاجـة - يا عنبسة إن كـان مالك الذي أصبح عندك حلالاً فـهو كافيك، وإن كـان حرامًا فلا تزيدنَّ إليه حـرامًا، ألا تخبرني أَمحـتاج أنت؟ قال: لا، قال: أَفعليك دين؟ قال: لا، قال: أَتأمرني أن أَعْمدَ إلى مال الله فأعطيَكَهُ من غير حاجة بك إليه وأَدعَ فقراء المسلمـين؟ لو كنت غارمًا أديت غُرمك، أو محتاجًا أمرت لك بما يصلحك، فـعليك بمالك الذي عندك فَكُلْه واتَّق الله، وانظر أولاً من أين جـمـعتـه، وانظر لنفـسك قـبل أن ينظر إليك مـن ليس لك عنده هَوادةٌ ولا مراجعة[1].

في هذا الحوار الذي جـرى بين أمير المؤمنـين عمر بن عـبد العزيز وعنبـسة بن سعيد يتـبين لنا دقة عمر في التحري في اكتـساب المال، بحيث لا يكون من طريق حرام أو مشتبه فيه.

كما يظهـر لنا مثل من عدالته في توزيع المال العام، حـيث بين أن عنبسة ليس بأحق بهذا المال من فقراء المسلمين.

وهذا مثل من أمثلة كثيرة وضح فيها عمر حرمة مال المسلمين العام، وأن الأخذ منه بغير حق كالأخذ من أموال الناس الخاصة، وقـد كان كثير من الناس يعتقدون بأن ولاة الأمر لـهم حرية التصـرف بأموال المسلمـين كما يؤدي إليـه نظرهم، وأن ذلك يصير حلالاً لمن أُعطي له بمجرد صرفـه من ولي الأمر، فبين لهم عمر بأقوال وأفعال كـثيرة أن هذا المال لا يجوز صرفه إلا لمـستحقيه، وأنه إذا صُـرف في غير وجهه فإنه يجب على من صُرف له أن يرده لبيت مال المسلمين.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٥٤ - ١٥٥.

مثلان من حكمته وحزمه:

لما ولي الخلافة قال له ابنه عبد الملك: إني لأراك يا أبتاه قد أخرت أمورًا كثيرة كنت أحسبك لو وليت ساعة من النهار عجلتها، ولوددت أنك قد فعلت ذلك ولو فارت بي وبك القدور، قال له عمر: أي بني إنك على حُسْن قَسْم الله لك، وفيك بعض رأي أهل الحداثة، والله ما استطيع أن أخرج لهم شيئًا من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا، أستلين به قلوبهم، خوفًا أن ينخرق عليَّ منهم ما لا طاقة لي به[1].

وهكذا لم يأخذ عمر برأي ابنه عبد الملك الذي لا يزال حديث السن لا يقدِّر عواقب الأمور، على الرغم من كون رأيه حقًا، ولكن ليس كل حق ينفَّذ حال معرفة أنه حق من غير نظر في عواقب التغيير، فربما أدى ذلك في بعض الصور إلى منكر أكبر من المنكر الذي يروم إزالته المصلحون، ولكن يبقى في ذهن المصلح وفي عزمه إزالة جميع المنكرات، وإنما يسلك في سبيل ذلك طريق الحكمة، ولذلك كان عمر يستلين قلوب أهل الدنيا بشيء من المال ليتوصل بذلك إلى ما يريده من الإصلاح حتى لا ينخرق عليه من أمورهم ما لا يستطيع مقاومته إلا بالقوة، وهو لا يريد إراقة الدماء، لأن شأن الأموال أهون بكثير من شأن الدماء.

ولكن حينما يكون لابد من القوة فإن من الحزم استعمالها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم قال: وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له «رَوح» وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابي، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون رَوحًا في حوانيت بحمص وكانت لهم أقطعَهُ إياها أبوه الوليد بن عبد الملك، فقال له عمر: اردد عليهم حوانيتهم، قال له روح: هذا معي بسجل الوليد، قال: وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها؟ خَلِّ لهم حوانيتهم، فقام روح والحمصي منصرفين، فتوعد روح الحمصي، فرجع الحمصي على عمر فقال: هو والله متوعدني يا أمير المؤمنين، فقال عمر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٤٣، ٨٧.

لكعب بن حامد - وهو على حرسه -: اخرج إلى روح يا كعب فإن سلَّم إليه حوانيته فذلك، وإن لم يفعل فأت برأسه، فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذي أمر عمر فخلع فؤاده، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبراً فقال له: قم فخلِّ له حوانيته، قال نعم نعم، فخلَّى له حوانيته[1].

وهكذا ظهر حزم عمر حينما استهان روح بن الوليد بحكم الشرع وأمر السلطان، فكان لابد من تهديده بالقوة ليذعن لحكم الحق، وهذا المثل يدلنا على أن استسلام الجبابرة لأوامره وسكوتهم على سياسته لم يكن عن قناعة، وإنما كان خوفًا من سلطانه.

إنصافه رجلاً من عدي بن أرطأة:

رُوي عن ابن عياش قال: خرج عمر ذات يوم من منزله على بغلة له شهباء، وعليه قميص له وملاءة ممشَّقة، إذ جاء رجل على راحلة له فأناخها، فسأل عن عمر، فقيل له: خرج علينا وهو راجع الآن، قال: فأقبل عمر ومعه رجل يسايره، فقيل للرجل: هذا عمر أمير المؤمنين، فقام إليه فشكى إليه عديَّ بن أرطأةَ في أرض له[2]، فقال عمر: أما والله ما غرَّنا منه إلا بعمامته السوداء، أما إني قد كتبت إليه - فضلَّ عن وصيتى -: إنه من أتاك ببينة على حق هو له فسلِّمه إليه، ثم قد عنَّاك إلي، فأمر عمر بردِّ أرضه إليه، ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إلي؟ فقال: يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت عليَّ أرضي وهي خير من مائة ألف! قال عمر: إنما رددت عليك حقك، فأخبرني كم أنفقت؟ قال: ما أدري، قال: احزره، قال ستين درهمًا، فأمر له بها من بيت المال، فلما ولَّى صاح به عمر، فرجع فقال له: خذ هذه خمسة دراهم من مالي فكل بها لحما حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله[3].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٠. وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى/ ٤٣، ٨٧.

(٢) وكان عاملاً لعمر على الكوفة.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٤٦.

فهذا مثل على اهتمام أمير المؤمنين عـمر بن عبد العزيز برد الحقوق إلى أهلها، وهو من أمثلة كثيرة، مرَّ علينا بعـضها، ولكن الذي يلفت النظر في هذا الخبر هو ما قام به عـمر من تعويض ذلك الرجل عمـا أنفقه في سفـره، حيث إنه كان من حقه أن يُقْضى له في بلده من غير سفر.

وفي هذا لفت نظر إلى أمر مهم وهو أن من حق كل إنسـان أن يأخذ حقه دون أن يكلَّف بالإنفاق من ماله في سبيل ذلك.

وهذا التعـويض من فقـه عمر حـيث رأى أن إلجاءَ ذلك الرجل إلى السـفر من أجل رفع قضيـته يُعدُّ من تقصير الوالي في بلده، وليس من تقـصير ذلك الرجل، ولذلك فإنه ليس من العدل أن يُحمَّل تلك التكاليف.

خبره مع فرتونة مولاة ذي أصبح:

ومن الأمثلة الجـيدة على شعـور أمير المؤمنـين عمر بن عـبد العزيز بالمسـؤولية واهتمامـه بأمور الأمة دقيقـها وجليلها ما جاء في سـياق الروايات التي رواها ابن عبدالحكم عن شيوخه قال: وكان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابًا إلا حـمله، فخرج بريد من مصر فدَفَعَتْ إليـه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابًا تذكر فيـه أن لها حائطًا قصيرًا، وأنه يُقتحم عليها فـيُسرقُ دجاجها فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، مـن عبد الله أمير المؤمنين إلى فـرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بـلغني كتـابك وما ذكرت من قـصر حـائطك وأنه يُدخَل عليك فـيه فيُسرق دجاجك، فقد كتبت كتابًا إلى أيوب بن شرحبيل - وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها - آمـره أن يبنى لك ذلك حتى يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله، والسلام.

وكتب إلى أبوب بن شرحبيل «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فـإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتـبت تذكر قِصَر حائـطها، وأنه يُسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها، فـإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصِّنه لها.

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصَّنه لها[1].

فهذا الكتاب الذي رُفع من تلك المرأة المسكينة المغمورة، إنما هو أثر من آثار العدل الذي شمل البلاد الإسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز، فما كانت هذه المرأة المسكينة لترفع حاجتها إلى أمير المؤمنين لو كانت تتوقع أن كتابها سيكون طي الإهمال والنسيان، ولكن لما استقر في ضميرها أن أمير المؤمنين يهتم بكل أمر من أمور الرعية كبيرها وصغيرها، وأن كبار الأمور لا تشغله عن صغارها وجدت من نفسها نشاطًا وهمة في الكتابة إليه بأمرها.

وما أن وصل كتابها حتى كتب أمير المؤمنين في جواب ذلك كتابًا إليها يخبرها بما أمر به الوالي في مصر من قضاء حاجتها، وكتابًا إلى ذلك الوالي ليذهب بنفسه لقضاء حاجتها.

إنه لم يكتف بكتابه للوالي لخوفه من أن يتأخر في ذلك أو يعتريه النسيان، بل كتب كتابًا آخر لصاحبة الحاجة لتراجع الوالي فيما إذا لم يسارع إلى قضاء حاجتها.

إن هذا الاهتمام من أمير المؤمنين يُعدّ مثلاً عاليًا في الشعور بالمسؤولية ويُعدُّ مصداقًا للرؤيا التي رآها فيه جده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من أنه يسير بسيرته، فإن من صفات عمر بن الخطاب أنه كان قمة فى العدل والشعور بالمسؤولية، وأنه لم تكن كبار الأمور تشغله عن صغارها.

إنصافه رجلاً اشتكى من أحد أقاربه:

قال ابن عبد الحكم رحمه الله تعالى: وأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين مَظْلمةٌ دخلتْ عليّ، قال عمر: ومن يَكُ؟ قال: فلا والله ما استطاع أن يقول: فلان، لبعض أهله، مرتين أو ثلاثًا، فقال: فلان بن فلان عمد إلى مال لي بكذا وكذا فأخذه فقال: يا غلام ائتني بدواة وقرطاس فكتب إلى عامله، إن فلانًا ذكر لي كذا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٦.

وكذا فإن كان الذي ذكر لي على ما ذكر فـلا تراجعني فيه وارددده عليه، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: إن هذا لهو البلاء المبين[1].

فهذا مثل من حزمه رحمه الله في تطبيق العدالة حتى مع أقاربه حيث أمر عامله بأن يرد الحق على صاحبه وإن كان المدَّعَى عليه من أقاربه.

وفي هذا الخبر مثل من الذل الذي تتربَّى عليـه النفوس في حال تسلُّط الجبروت والطغيـان، حيث تلعثم صـاحب الحق في رفع قضيـته مع أنه أمام حـاكم عادل، ولكن الخلفيات السـابقة لحكم الظلم والتسلط جعلته يتردد ويتـتعتع، ولو لم يكن على رأس الحكم حاكم عادل لمـا فكر أساسًا في رفع قضيـته لأنه - والحال هذه - يخشى أن يناله أذى فيما إذا رفع قضيته ضد أحد أقارب الحاكم.

تسويته بين الناس في مجلس الحكم:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خـبر الحكم بن عمر الرعيني قال: شـهدت مسلمة ابن عبد الملك يخاصم أهل ديـر إسحاق عند عمر بن عبد العـزيز بالناعورة، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي، ولكن وكِّل بخصومتك من شئت وإلا فـجاثِ القـوم بين يدي، فوكَّل مولى له بخـصومتـه فقـضى عليه بالناعورة[2].

فهذا مـوقف جليل من أمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز رحـمه الله تعالى في إقرار قـواعد العدل في مجـالس الحكم، وقد كان أحـد الخصمين ابن عمـه القائد الكبير مسلمة بن عبد الملك، ومع رفعة منزلته وكونه ممن يحبهم عمر بن عبدالعزيز ويقدرهم كثيرًا فإنه لم يحابه في الحكم، بل ألزمه بأن يسوي نفسه مع خصومه ثم حكم عليه لصالح خصومه.

وهذا مثل عظيم فـى الموازنة بين إقرار قواعـد الإسلام فى العدل وبين مـحاباة كبراء الناس، والموازنة بين طلب رضوان الله عز وجل واجتناب سخطه وبين طلب رضوان كـبراء الناس واجـتناب سخطهم، فـإذا كان وجود الإيمان بالله تـعالى فى القلب عظيمًـا وتأثيره كبـيرًا إن التصور الفكري يكون صـحيحًـا والسلوك العملى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٣.

(٢) سيرة عـمر بن عبد العـزيز لابن الجوزي/ ٥٩، والناعورة مـوضع بين حلب وبالس فيه قصـر لمسلمة بن عبدالملك، بينه وبين حلب ثمانية أميال.

يكون مستقيمًا، وبضد ذلك ما إذا عُـمر القلب بالرهبة من البشر أو الرغبة إليهم، فإن التصور الفكري يكون مشوبًا بالغبش ويكون السلوك العملي منحرفًا.

أمره بوضع الضرائب:

ومن أمثلة عدله مـا جاء في كتابه الذي بعـثه إلى عروة بن محمـد عامله على اليمن وجاء فـيه: أما بعد فقد جـاء كتابك تذكر أن من كان قبلك من العـمال قد وضعوا على أهـل اليمن صدقاتهم وظائف، إن افـتقروا لم يُنقصـوا، وإن استغنوا زيدَ عليهم، وتُؤامـرني في ذلك، ولعمري إن هذا لَلْجور حقَّ الجـور، فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم مـن الحق، ثم اقسم ذلك على فقرائهم، وأَقْعِدْ على طريق الحـاج قومًـا ترضاهم، وترضى ديـنهم وأماناتهم يقـوُّون الضعـيف، ويغنون الفقيـر، فو الله لو لم يأتني من قِبَلكَ إلا كفٌّ لرأيته من الله قسمًـا عظيمًا والسلام[1].

فـفي هذا الكتـاب دلالة على أن بعض الولاة السـابقين قد حـولوا الزكـاة إلى ضريبة تؤخـذ من المسلمين بقدر محدد، يثبت على حـاله عند فقرهم، ويزيد عند غناهم، وفي هذا مخـالفة واضحـة لشريعة الإسلام، حـيث إن الزكاة لها مـقادير وأحكام حُدِّدت في الشـريعة، ورُوعي فيهـا حال دافعـها من الفقر والغنى، كـما روعي فيها أنها ليست ضريبة تُجبَى لتدخل في مال المسلمين العام، وإنما تؤخذ من أغنياء كل بلد لتُدفع إلى فقرائهم، كما جاء في حديث معاذ لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، وفيه «**فأَعلمْهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ على فقرائهم**»[2].

ولهذه المخالفات التي ذكـرها والي اليمن نجد أن عمر بن عبـد العزيز رحمه الله يغضب من ذلك الوضع، ويصفه بأنه الجور حق الجور، ثم يوجه ذلك العامل إلى أن يأخذ من الناس الحق الشرعي في زكاة أموالهم، وأن يردها على فقرائهم.

كما يأمره فوق ذلك بأن يجعل على طريق الحـجاج رجالاً أمناء يقومون بخدمة الحجاج، وتموينهم بما يكفي ضعفاءهم ومحتاجيهم.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٥.
(٢) صحيح البخارى، الزكاة، رقم ١٣٩٥ (٣/ ٢٦١).

وبهذا صار عطاء دولتـه لأمته أكثر من جـبايته، فسعدت الأمـة به، وزال الفقر عن فقرائها في مدة وجـيزة، وفاض المال عند الولاة حتى أصبحوا يستـشيرون أمير المؤمنين في صرف هذا المال الفائض.

ومن أمثلة ذلك مـا كتب به عمر بن عـبد العزيز إلى زيد بن عبـد الرحمن بن عمر بن الخطاب - وكان على الكوفة - يقول: كـتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد. والسلام.

ثم كتب إليه زيد: إنـه قد بقي عندنا بعد ذلك، فكتب إليه عـمر: أن قوِّ أهل الذمة، فإنا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين[1].

وفى هذا الخـبر نـظرة رحمـة ومـواساة لصنـفين من الناس في غـاية الحاجـة والاضطرار، وهما المَدِينون، فمـا أشد احتياجهم، وما أبلغ هـمهم! والذين عزموا على الزواج وليس لديهـم ما يكفى لتكـاليفـه، فمـا أعظم فـرحـتهم، ومـا أبلغ سعادتهم حينما يُقَدَّم لهم ما يسد حاجتهم!

وأخيرًا لفتـة مهمة من أمير المؤمنين عـمر حينما أوصى عامله بالاهتـمام بتقوية أهل الذمة وإصـلاح بلادهم، فإنهم يُعـدُّون مصـدرًا مهمـا من مصـادر بيت مال المسلمين، فوصيته هذه نظرة مستقبلية جيدة لتقوية هذا المصدر.

فلله در أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ما أسمى تفكيره، وما أبعد نظره!!

اهتمامه بفداء الأسرى والقضاء على الغارمين:

من ذلك أنه كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية: أمـا بعد: فإنكم تعدُّون أنفسكم أسارى، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئًا بين رعيتي إلا خـصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيـبه، وإني قد بعثت إليكم خـمسة دنانير خمـسة دنانير، ولولا أني خشـيت إن زدتكم أن يحبسه طاغـية الروم عنكم لزدتكم، وقـد بعثت إليكم فـلان ابن فلان يفـادي صغـيركم وكـبيركـم، ذكركم وأنثاكم، حرَّكم ومملوككم بما سئل به، فأبشروا ثم أبشروا. والسلام عليكم.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم./ ٦٨.

وكتب أيضًا إلى عماله: أن اقضوا عن الغارمين، فكُتب إليه: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الأثاث في بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم فاقضوا عنه ما عليه من الدين[1].

ففي الكتاب الأول يواسي عمر بن عبد العزيز أسرى المسلمين لدى الروم، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين.

وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي أمدهم به، وبما أخبرهم به من كفالة أُسَرِهم في حال غيبتهم، كما أنه وعدهم جميعًا بمفاداتهم لفكِّ أَسْرِهم.

وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره.

وفي الخبر الثاني يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة، والاهتمام بشؤون الرعية.

وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بمال الأمة، حيث يُغنون به فقيرها، ويجبرون به كسيرها، ويفكُون به أسيرها، ويقضون به عن معسرها، ويسدُّون به خلَّة معوزها.

خبره مع الأسير الأعمى:

ومن الأمثلة الرائعة لرحمة عمر بن عبد العزيز رحمه الله واهتمامه بالمسؤولية ما أخرجه ابن عبد الحكم قال: وأرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولاً، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمر بموضع فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام - مرتين أو ثلاثًا - ثم سلم عليه، فقال له: وأَنَّى بالسلام في هذا البلد! فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم، فقال له: ما شأنك؟ فقال: إني أسرت من موضع كذا وكذا، فأُتِي بي إلى صاحب الروم، فعرض عَليَّ النصرانية فأبيت، فقال لي: إن لم تفعل سمَلْتُ عينيك،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٦٣ - ١٦٤.

فاخترت ديني على بصري، فسَمَل عينَّي وصيَّرني إلى هذا الموضع، يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة آكلها.

فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل قال: فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلَّت ما بين يديه.

ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم: أما بعد فقد بلغني خبر فلان ابن فلان فوصف له صفته، وأنا أُقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك وآخرها عندي.

فلما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبدالعزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به.

قال: فأقمت أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكآبة، فقال: تدري لما فعلت هذا؟ فقلت: لا - وقد أنكرت ما رأيت - فقال: إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات، فلذلك فعلت ما فعلت، ثم قال: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السُّوء لم يُتْركْ بينهم إلا قليلاً حتى يُخرج من بين أظهرهم.

فقلت له: أتأذن لي أن أنصرف - وأيست من بعثه الرجل معي - فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه الرجل[1].

هذا وإن في هذا الخبر ثلاثة أمور مهمة:

أ- موقف هذا الرجل المسلم الذي فضَّل البقاء على دينه، وتحمَّل سمل عينيه بالحديد المحمي بالنار حتى فقد بصره، وهنا يقف المتأمل مندهشًا من هذا المشهد العظيم، الذي يدل على قوة الإيمان بالإسلام والقناعة به، حيث فضل هذا الرجل دينه على صحته وحياته، لأنه يَعدُّ هذا الدين هو حياته الحقيقية، ويَعدُّ مفارقة الإسلام موتًا لا يدانيه موت.

ولا شك أنه كان لهذا الموقف العالي وأمثاله الأثر البالغ في الدعوة إلى الإسلام، لأن العقل السليم يدل على أن المبدأ الذي يفضله صاحبه على حياته لا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٦٨.

يمكن أن يكون عاديّا كمبادئ البشر المعروفة، لأن المبادئ تُستخدم عادة لرفع قيمة الإنسان في هذه الحياة، فلا يمكن أن يضحِّي الإنسان بحياته من أجلها، وهو إنما يستخدمها للحياة، فلابد أن المبدأ الذي يبذل صاحبه حياته من أجله وراءه دافع أقوى من مستقبل هذه الحياة، ولا يمكن أن يوجد ذلك إلا في الإسلام الذي كرم الله تعالى فيه الشهداء والذين أوذوا في سبيل هذا الدين، ورفعهم درجات عليا في الجنة.

هذا الرجل المسلم المغمور الذي لم يُذكر اسمه مثَّل هذا الموقف الكبير، فكم في هذه الأمة الإسلامية من المغمورين الذين يزن إيمانهم الجبال الراسيات!

وإذا كان هذا في المغمورين فكيف الحال بالمشاهير الذين لمعت أسماؤهم في مجال التضحية والفداء؟!

ب- وفي هذا الخبر مثل من رحمة عمر بن عبد العزيز البالغة وإشفاقه على المسلمين حيث بكى ذلك البكاء الشديد من خبر ذلك الأسير.

ومثل من اهتمامه العظيم بأمور المسلمين حيث كتب إلى ملك الروم يهدده ذلك التهديد القوي إن لم يُفرِجْ عن ذلك الأسير.

ج- كما أن في هذا الخبر بيانًا لأثر العدل في الحكم حتى على الأعداء المحاربين، فحينما جاء كتاب عمر الذي بلغ حدًا عاليًا في التهديد لملك الروم، ما كان من هذا الملك إلا أن قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا.

وحينما بلغه موت عمر تأثر بذلك وظهرت الكآبة على وجهه، وذلك لأنه حتى الأعداء ينعمون بعدل الأمراء من أعدائهم، لأنهم يأمنون خيانتهم وظلمهم لهم ولأتباع دينهم الذين يعيشون في بلاد هؤلاء الأمراء.

وقد بلغ بملك الروم التأثر بعدل عمر إلى حد أنه وفي بما وعد به حتى بعد موته وقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته.

اهتمامه بأمور الرعية:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: وخرج عمر بن عبد العزيز يومًا في ولايته الخلافة بالشام فركب وهو ومزاحم - وكان كثيرًا ما يركب فيلقى الركبان

يتحسس الأخبار عن القرى - فلقيهما راكبٌ من أهل المدينة، وسألاه عن الناس وما وراءه وهو الأمر الذي خرجا من أجله. فقال لهما: إن شئتما جمعت لكما خبري، وإن شئتما بعضته تبعيضًا. فقالا: بل اجمعه فقال: إني تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغني موفور، والعائل مجبور. فسُرَّ بذلك عمر وقال: والله لأَن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس[1].

مثل من اختياره الولاة:

قال الإمام أبو جعفر الطبري: ثم إن عمر لما أراد استعمال عاملٍ على خراسان، قال فيما ذكر عليّ بن محمد بن خارجة بن مصعب الضبعيّ وعبد الله بن المبارك وغيرهما: ابغوني رجلاً صدوقًا أسأله عن خُراسان، فقيل له: أبو مجْلز لاحق بن حميد. فكتب فيه، فقدم عليه - وكان رجلاً لا تأخذه العين[2] فدخل أبو مجْلز على عمر في جفة الناس[3]، فلم يُثبتْه[4] عمرُ، وخرج مع الناس فسأل عنه فقيل: دخل مع الناس ثم خرج، فدعا به عمر فقال: يا أبا مجلز، لم أعرفك، قال: فهلا أنكرتني إذ لم تعرفني! قال: أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله، قال: يكافئ الأكفاء، ويعادي الأعداء، وهو أمير يفعل ما يشاء، ويُقدم إن وجد من يساعده. قال: عبد الرحمن بن نعيم، قال: ضعيف ليّن يحب العافية، وتأتي له، قال: الذي يحب العافية وتأتي له أحبّ إلي، فولاه الصّلاة والحرب، وولّى عبدالرحمن القشيريّ، ثم أحد بني الأعور بن قشير الخراج، وكتب إلى أهل خراسان: إني استعملتُ عبد الرحمن على حربكم وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم عن غير معرفة مني بهما ولا اختيار، إلا ما أخبرتُ عنهما، فإن كانا على ما تحبون فاحمدوا الله، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال عليّ: وحدّثنا أبو السريّ الأزديّ، عن إبراهيم الصائغ، أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم:

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١.
(٢) يعني أن جسمه لا يلفت النظر.
(٣) جفة الناس: جماعتهم.
(٤) لم يثبته: لم يعرفه حق المعرفة.

أما بعدُ، فكن عـبدًا ناصحًا لله في عباده، ولا يأخـذك في الله لومة لائم، فإنّ الله أوْلى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا تولِّين شـيئًا من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصـيحة لهم والتوفـير عليهم، وأداء الأمـانة فيما اسـتُرعيَ، وإياك أن يكون ميلك ميـلاً على غير الحق، فإن الله لا تَخفى عليه خـافية، ولا تذهبن عن الله مذهبًا، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه[1].

مثل من احتياطه في اختيار الولاة:

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن مـحمد الخضر الملاء: أن بلال بن أبي بردة دخل على عمـر بن عبد العـزيز وعليه قميـص قد شمّره فـوق كعبيـه وعليه عمـامة له حزقانيـة قد سَدَلها بين كتـفيه وقد أثر السجود في وجـهه. قال: فاستنطقـه عمر فوجده رجـلاً سديد العقل. فقال له: قم يا بلال ارجع إلى منزلك. ثم دعـا عمر ابن عبد العـزيز مزاحمًا فـقال: يا مزاحم! اختـبر لي هذا الرجل - يعني بلالاً - فليس لي غناء عنه إن كان له ورع. فلما خرج مـزاحم أرسل إلى بلال فجاء فقال له مـزاحم: يا بلال. قال: مـا تشاء أصلحك الله. فـقال مـزاحم: أنا والله أحب الخير لنفسي فماذا لي إن رمـيت بك على أحد العراقين؟ فقال: إذا كان ذلك فلك علي ثلاثون ألفًـا، والله أنقدك إياها السـاعة، وأربعـون ألفًا إذا قـدمت البلد. ثم قال: الأمر أمـرك لا يخالف ولا يعصى. فقال مـزاحم: ارجع إلى منزلك. قال: وخرج مزاحم حتى دخل على أمير المؤمنين عـمر وقال له: عدو الله لص. وأخبره الخبـر. فقال عـمر: والله إن كاد ليـغرني بسجـدته وعمامـته. والله لا يمسين في عسكري. انخـسوا به. ثم كتب: من عبـد الله عمر بن عبد العـزيز إلى عدي بن أرطأة سـلام عليك. أمـا بعد، فـإياك وبلالاً بلاء السـوء، وعـيينـة بن أسمـاء، وحوشب بن يزيد، فإنهم من بـقايا السوء فلا تستعـينَنَّ بهم على شيء من عملك والسلام عليك[2].

ففي هذا الخبـر ظهر لنا تطبيق أمير المؤمـنين عمر بن عبد العـزيز لعلمه، حيث كان يعلم أن الشرطين الأساسيين للولاية هما اتصاف الوالي بالكفاءة والأمانة، وقد

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦١ - ٥٦٢.

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٤٦، وأخرجه ابن سعد مختصرًا ٥/ ٣٩٥.

عـرف اتصاف هذا الرجل بالكـفاءة من منطقـه ومجـالسـته إياه، ثم كلف مـولاه مزاحـمًا باختـباره لمعـرفة أمانتـه، لكنه لم ينجح في الاختـبار فكان مـا كان من استبعاده والتحذير منه.

وهذا الاهتمـام الشديد من عـمر بن عبـد العزيز يدل على حـرصه الكبـير في التحـري في اختيار الولاة، لأن ذلك يضـمن له بنسبة كـبيرة أن تسيـر الأمور في البلاد الإسلامية على ما يريد من العدل والإصلاح.

حرصه على تولية الأكفاء:

أخرج الحافظ أبو نعـيم الأصبهاني من خير الإمام الأوزاعـي قال: أراد عمر بن عبـد العزيز أن يسـتعمـل رجلاً على عمل فـأبي، فقـال له عمر: عـزمت عليك لتفـعلن، فقال الرجل وأنا أعـزم على نفسي أن لا أفعل، فـقال عمر أتعـصيني؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ [الأحزاب: ٧٢]. أفمعصية كان ذلك منهن؟ فأعفاه عمر[١].

مثل من نباهة عمر وفطنته:

قال أبو محـمد عبد الله بن عبـد الحكم: وولى عمر بن عبـد العزيز الوليد بن هشام المُعَيْطي عـلى جند قِنَّسرين - والفُراتُ بن مسلم على خـراجها - فتبـاغيا، حتى بلغ الأمر بالوليد أن هيأ أربعة نفـر من كهول قنسرين يشهدون على فرات أنه يدع الصلاة، ويُفطر شهر رمـضان مقيمًا صحيـحًا، ولا يغتسل من الجنابة، ويأتي أهله وهي طامث. فقدموا على عـمر بن عبد العزيز فشهـدوا بهذه الشهادة، وهم مخـتضبون بالحناء، فـقال عمر هذا رمـقتموه فـي صلاته فلم يُصَلِّها، إما تركـها متعمداً وإما ساهيًا، ورأيتموه يفطر ظهر رمضان ولا ترون به سقمًا، ما علمكم أنه لا يغتسل من الجنابة وغـشيانه أهله؟ والله ما هذا مما يشتم به ولا سـيما فرات في مثل عفافه وأمانته، يا غلام انطلق بهؤلاء المشيخة السوء إلى صاحب الشُرَط، فمُرْه فليضرب كل واحد منهم عشرين سـوطًا على مَفرق رأسه، وليرفق في ضربه لمكان

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣١٢.

أسنانهم، وبحَسْبهم من الفضيحة ما هم صائرون إليه، إن لم يتغمد الله ما كان منهم بعفوه، ثم استوثق منهم بالكفلاء حتى يكون فرات هو الآخذ بحقه منهم، أو العافي عنهم، والعفوُ أقرب للتقوى وأقرب إلى الله عز وجل. ثم أصلح بين الوليد والفرات.

قال: ولما قدم قابل، وقدم الوليد ومعه رؤوس أنباط قنَّسرين كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الفرات أن أقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر إذ دخل الأنباط، فقال لهم عمر: ماذا أعددتم لأميركم في نزله لمسيره إليَّ قالوا: وهل قدم يا أمير المؤمنين؟ قال: ما علمتم به؟ قالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر بوجهه على الوليد فقال: يا وليد إن رجلاً ملك قنَّسرين وأرضها خرج يسير في سلطانه وأرضه، حتى انتهى إليَّ لا يعلم به أحد، ولا ينفّر أحدًا ولا يروعه، لخليقٌ أن يكون متواضعًا عفيفًا، قال الوليد: أجل والله يا أمير المؤمنين إنه لعفيف وإني له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه. فقال عمر: ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار، وردَّهما عمر على عملهما فكتب إليه الوليد - وكان مرائيًا - خديعة منه لعمر، وتزينًا بما هو ليس عليه: إني قدَّرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهمًا، ورزقي يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يَحطَّ فضل ذلك، فقال عمر: أراد الوليد أن يتزيَّن عندنا بما لا أظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحدًا على ظنٍّ لعزلته، ثم أمر بحطِّ رزقه إلى الذي سأله، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده، إن الوليد بن هشام كتب إليَّ كتابًا أكثر ظني أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئًا على ظني ما عمل لي أبدًا، ولكني آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا الأمر إليك، فسألك أن تردّ إليه رزقه، وذكر أني نقصته فلا يظفر منك بهذا أبدًا فإنما خادع به الله والله خادعه، فلما مات عمر، واستُخلف يزيد كتب إليه الوليد: إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث إليه فعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يل له عملاً حتى هلك[1].

في هذا الخبر مثل من الحسد المذموم وما يترتب عليه من الكيد للزملاء في العمل، وهذا ينتج عادة من تضخم شرف الدنيا في النفس وتضاؤل شرف الآخرة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٥١ - ١٥٣.

فيها، فيعمل الحاسد على تـقويض مركز من ينافسونه على شرف الدنيا، ويرتكب من أجل ذلك موبقـات منها الكذب والتزوير، ولو أن هذا الحـاسد استعـمل عقله السليم فأعطى الدنيا حـجمها الملائم لها لَتـواضَع بدلاً من أن يتكبر، ولأراح عقله من التفكير الطويل في مـلاحقة شرف الدنيا والكيـد للمنافسين، ولَعَفَّ لسانه عن قول الكذب والزور، ولعاش قرير العين سعيد النفس بما قسم الله له من مال الدنيا وشرفها، ولَطلب بفكره وعمله شرف الآخرة الذي لا يترتب عليه حسد مذموم ولا كبر وبطر ولا إشغال للفكر بتدبير المكائد والمؤامرات.

ولما كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خبيرًا بأدواء النفوس وتجاوزاتها فإنه قد أدرك على الفور أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن مجيء أولئك الشيوخ وتصريحهم بما أدلوا به من قدح مـشين بأميرهم فـرات بن مسلم ما هو إلا حلقـة من حلقات مؤامرة مدبرة لإيغار صدره عليه وعزله عن منصـبه، فهداه الله تعالى إلى استعمال فكره السليم في نقض تلك الدعـاوَى، ووضع أصحابهـا في قفص الاتهـام حتى تتـضح الرؤية ويتبين الحق، ولقـد كان واثقًـا من كذب تلك الـدعاوَى حيـث أمر بإجراء العقوبة على أصـحابها، ثم لم يكن بحاجة إلى إكمال التحـقيق في القضية لأن الأمر من الوضوح بحيث حمل صاحب المؤامرة على الاعتراف بخطئه والحكم على نفسه بالظلم لزميله في العمل والثناء عليه بما يستحقه من صفات الكمال، ثم لما كان هذا الاعـتراف بالخطأ برزت أخـلاق عمر بن عـبد العزيز المتـمثلة بالعـفو والرحمة وتقدير المواقف الإيمانية.

وحينما طلب منه الوليد بن هشـام المعيطي أن ينقص من راتبه أدرك خداعه في اختلاف سريرته مع علانيته، حيث أظهر العفة والزهد ليصل إلى كسب الثقة وعلو المنزلة عند عمـر بن عبد العزيز الذي يعظم هذا الاتجاه، ولـكن أمير المؤمنين أدرك ذلك فحقق له مطلبه، وفي الوقت نفسه فوَّت عليه الفرصة في نيل مقاصده، ولقد كان أمـير المؤمنين عظيم الورع حـينما لم يحكـم عليه بمجرد ظنـه، وإنما قاده هذا الظن إلى عمل الاحتياطات اللازمة لتفادي ما قد يكون من ذلك الوالي من جنوح في المستقبل.

فما أعظم عمر بن عبد العزيز في فطنته وفراسته وحزمه!!

وما أعظمه في رحمته وعفوه وورعه!!

موقفه في رفع الظلم عن زيد بن حسن:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: وكتب الوليد بن عبد الملك إلى زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب، يسأله أن يبايع لعبد العزيز بن الوليد، ويخلع سليمان بن عبد الملك، ففَرِق زيدٌ من الوليد فأجابه، فلما استُخلف سليمان وجد كتاب زيد إلى الوليد بذلك فكتب إلى أبي بكر بن حزم - وهو أمير المدينة - ادع زيد بن حسن فأقرئه هذا الكتاب فإن عرفه فاكتب إلي بذلك، وإن نكل فقدِّمه فأظهر يمينه على منبر رسول الله ﷺ: ما كتب هذا الكتاب ولا أمر، فأرسل إليه أبو بكر بن حزم فأقرأه الكتاب، فقال: أنظرني ما بيني وبين العشاء أستخير الله. قال: فأرسل زيد بن حسن إلى القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله يستشيرهما. قال: فأقاما معهما ربيعة فذكر لهما ذلك، وقال: إني لم أكن آمَنُ الوليد على دمي لو لم أجبه، فقد كتبت هذا الكتاب، أفترون أن أحلف؟ فقالوا: لا تحلف ولا تبارز الله عز وجل عند منبر رسول الله ﷺ، فإنا نرجو أن يُنجيك الله بالصدق، فأقرَّ بالكتاب ولم يحلف. فكتب بذلك أبو بكر بن حزم إلى سليمان، فكتب سليمان إلى أبي بكر أن يضربه مائة سوط، ويُدرعه عباءة، ويُمشيه حافيًا، فتشكى سليمان. فقال عمر بن عبد العزيز للرسول: لا تخرج حتى نكلم أمير المؤمنين فيما كتب إلى زيد بن حسن، لعلي أستطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. قال: فحبس الرسول والكتاب، ومرض سليمان فقال عمر: لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض، إلى أن رُمي في جنازة سليمان، وأفضى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز فدعا بالكتاب فخرقه[1].

وهكذا نجى الله تعالى زيد بن حسن من بأس سليمان بن عبد الملك وبطشه بذلك السلوك الحكيم من عمر بن عبد العزيز، وإنه لعجيب من أولئك الأمراء أن يحرجوا كبراء الأمة وفضلاءها بإدخالهم في تجاوزاتهم السياسية وجعلهم معرضين لنقمة الحاكم الحالي إن لم يوافقوا على تحقيق مراده أو نقمة الحاكم القادم إن وافقوا على ذلك، فكان زيد بن حسن قد فضل درء الشر الحاضر على أمل أن لا يكون الشر المستقبل، ولكنه وقع وكاد أن يتعرض للتعذيب المذكور لولا أن أنقذه الله تعالى بما فعله عمر بن عبد العزيز.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١١٩ - ١٢٠.

شكوى عمته باسْم بني أمية:

أخرج محمد بن سعد من خبر عبيد الله بن محمد التيمي قال: سمعتُ أبي وغيره يحدث أن عمر بن عبد العزيز لما ولي منع قرابته ما كان يجري عليهم وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم، قال: فشكوه إلى عمّته أم عمر، قال فدخلتْ عليه فقالت: إنّ قرابتك يشكونك ويزعمون ويذكرون أنك أخذت منهم خيرًا غيرك[1]، قال: ما منعتُهم حقّا أو شيئًا كان لهم ولا أخذت منهم حقًا أو شيئًا كان لهم. فقالت: إني رأيتُهم يتكلمون وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شرّه. قال فدعا بدينار وجَنْب ومجمرة فألقى ذلك الدينار في النار وجعل ينفخ على الدينار حتى إذا احمر تناوله بشيء فألقاه على الجنب فنشّ وقتّر فقال: أيْ عمه أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا؟ قال فقامت فخرجت على قرابته فقالت: تزوجون إلى عمر فإذا نزعوا الشبه جزعتم، اصبروا له[2].

ففي هذا الخبر بيان زهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بهذه الحياة الدنيا وعدم مبالاته بما يجري عليه فيها من مصائب، فإن الشيء الوحيد الذي يهتم له هو ما سيكون عليه مآله بعد الموت، فكل تهديد يوجه إليه في هذه الحياة الدنيا فإنه لا يثير خوفه ولا يحسب له حسابا، وهذا فيه تيئيس لمن سيعملون ضده لأنه لا يجذبه طمع ولا يخيفه فزع، ومن أجل أن يكون تصور أهوال الآخرة أبلغ فإنه قام بتمثيل مصغر لعذاب النار أمام عمته لتتأثر بذلك الموقف ولتنقل الصورة إلى بني أمية لعلهم يتذكرون ويعتبرون.

تأديبه لمن سخَّر أهل الذمة:

أخرج محمد بن سعد من خبر سهل بن شعيب أن ربيعة الشعوذي حدثهم قال: ركبتُ البريد إلى عمر بن عبد العزيز فانقطع في بعض أرض الشام فركبت السُّخْرة[3] حتى أتيته وهو بخناصرة فقال: ما فعل جناح المسلمين؟ قال قلت: وما

(١) يعني الخير الذي جاءهم من غيره، وتعني بذلك المال الذي جاءهم من الخلفاء السابقين.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٣، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٩٦.

(٣) يعني سخر من مر بهم من أهل الذمة ليحملوه على دوابهم.

جناح المسلمين يا أمير المؤمنين؟ قال: البريد. قال قلت: انقطع في أرض أو مكان كذا وكذا. قال: فعلى أيّ شيء أتيتنا؟ قال قلت: على السخرة تسخرتُ دوابّ النبط. قال: تسخّرون في سلطاني؟ قال فأمر بي فضربتُ أربعين سوطًا، رحمه الله[1].

فهذا من أبلغ أمثلة العدل، حيث يأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بضرب أحد عماله لكونه سخَّر أهل الذمة لحمله على دوابهم، فهو يرى أن ذلك ظلم لهم، فما أسمى أحكام الإسلام التي يصل بها أهل الذمة من الكفار إلى حقوقهم الكاملة ويتمتعون بها بالعدل والأمن!! ولكن هذه الأحكام تحتاج إلى حكام عادلين لتتمثل في واقع الحياة فيشاهدها الناس أجمعون، ويكون لها الأثر الكبير في تعظيم الإسلام والانجذاب إليه.

مثل من بركة الحكم بالعدل:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني حدثني أبي عن جدي. قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقا ونقبا، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد وأسأله: آخذ من الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس؟ فكتب إلى أن آخذ الناس بالبينه وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. قال يحيى: ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا ونقبا[2].

فهذا مثال على أن البركة والسعادة والأمن تتوافر في تطبيق شريعة الإسلام، فإن عصاة المسلمين وإن جرت منهم جنوحات إجرامية فإنهم مؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر، فإذا شعروا بأنهم يُحكَمون بالدين وأن الحاكم صادق ومخلص في تطبيق الإسلام فإنهم يرتدعون بأقل الروادع، ويصبح من يلومهم على إجرامهم يتكلم باسم الدين فيرعوي من في قلبه بقية من جذوة الإيمان ويقظة الضمير، ولا يصر على الإجرام إلا من قست قلوبهم وغلظت طباعهم، وهؤلاء لا يرتدعون إلا بتطبيق الحدود الشرعية، ولكن عددهم في المجتمع الإسلامي محدود، فالقضاء

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٤.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٧١.

على الجـرائم -والحال هذه- مـتـيسـر للحـاكم العادل الـذي يطبق الحق على كل المسلمين، ومن هذا المنطلق نجح هذا الحاكم في إقرار الأمن والقضاء على الجرائم.

أما إذا كان الحاكم يأخذ الناس بالظن ولا يتقيد بأحكام الشريعة فإن من عندهم ميل للجـرائم يغالبون الحاكم بالتـحدي، ولا ينشط المتقـون للإنكار على المجرمين لأن القضية تكون بينهم وبين سلطان مـتجبر، فيكون موقف المتقين ضعـيفا حينما يقاومون أصحاب الجرائم لأن موقفهم قد اقترن بموقف الحاكم المتسلط.

إنصافه الأعراب من بعض بني أمية:

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر سليمان بن موسى أنه بلغه أن قومًا من الأعراب خاصـموا إلى عمر بن عـبد العزيز قومًا من بـني مروان في أرض كانت الأعراب أحيوها، فأخذها الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر بن عبد العزيز: قال رسول الله ﷺ: «**البلاد بلاد الله والعباد عبـاد الله من أحيى أرضا ميتة فهي له**»، فردها على الأعراب[1].

فهذا مـثل من عدل أمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز رحمـه الله تعالى، حيث أنصف الأباعد عنه من المـقربين إليه، وفي الخـبر دلالة على أهميـة العلم الشرعي للحاكم وأثر ذلك في سلوك الطريق المستقيم والسلامة من الزلل.

وصيته عماله بالتقوى والعدل:

قال ابن عبد الحكم، كتب عمر بن عبـد العزيز: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العـمال[2]، أما بعـد: فإن هذا الأمـر الذي ولاني الله لو كنت إنما أصـبحت ورغبتي فـيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج أو اعتقـاد أموال لكنت قد بلغ الله بي من ذلك قـبل ما ولاني من أفـضل ما بلغ بعـباده ولكني أصـبحت له خائفًـا، أعلم أن فيه أمـرًا عظيمًا وحـسابا شديدًا ومـسألة غليظة[3] عند مجاهدة الخصـوم بين يدي الله إلا ما عافى الله ورحم ودفع، وإني آمـرك فيمـا وليتك من

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل/ ٢٩٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٨٥.
(٢) في تاريخ الطبري أن هذا الخطاب موجه إلى يزيد بن المهلب.
(٣) في كتاب ابن عبد الحكيم «لطيفة» وأثبت ما في تاريخ الطبري لأنه أنسب لسياق الكلام.

عملي وأفضيت إليك من أمري بتقوى الله، وأداء الأمانة واتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، وقلة الالتفات إلى شيء خالف ذلك، ليكون الذي آمرك به في سيرتك والنظر في نفسك وفي عملك، وما تفضي به إلى ربك وما تعمل به فيما بينك وبين الرعية قِبَلَك، وأنت تعلم علما يقينا أنه ليس نجاة ولا حرز إلا أن تنزل بذلك المنزل من طاعة الله، ودع أن ترصد شيئًا ليوم ترجوه أو تخافه سوى ما ترجوه غدًا من الله تعالى وتخاف منه، فإنك قد رأيت عبرًا في نفسك وعبرًا ما مُثلها وُعظ مثلُنا، وكفى ومثلُها أصابك إلى حظك من الله، والسلام[1].

فهذا الخطاب يبين عظمة شعور أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بالمسؤولية، حيث فهم وبين أن الولاية مغرم لا مغنم، فهي جدٌّ وعمل وهمٌّ متواصل، وإنما يدفع إلى فهم حقيقتها، والنجاة من مزالقها شعور صاحبها بالوقوف بين يدي الله تعالى للحساب، وأن يُعدَّ لكل قضية جوابا، فإذا لم يستطع إعداد الجواب في الدنيا فإنه أعجز عنه في الآخرة، وإنما يكون إعداد الجواب بتنقية السيرة وتطهير السريرة، وبذل الجهد في الإصلاح، فإن العامل لا يُلام بعد بذل الجهد على ما كان منه من تقصير أو خطأ لا يعلمه، أما إذا كان هدف العامل اكتساب مجد الدنيا ومتاعها وتجنب خسارتها فإنه قد حكم على نفسه بالهلاك، وضيع باختياره سبيل النجاة، فلا يلومنَّ إلا نفسه المفرِّطة، ولا ينتَقِصَنَّ إلا فكره المنحرف.

ومن ذلك ما ذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال: وكتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمير الأجناد: أما بعد فإنه من بُلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة وبلايا عظام، إن غابت عنه يومًا فهي حَرِيَّة أن تحضره في اليوم الآخَر، وإنه ليس أحد بأشغل عن نفسه ولا أكثر تعرضًا لزيغ من ولي السلطان، إلا ما عافى الله ورحم: فاتق الله ما استطعت، واذكر منزلك الذي أنت به والذي حُمِّلت، وقاتل هواك كما تقاتل عدوك، واصبر نفسك عما كرهت ابتغاء ما عند الله من حسن ثوابه الذي وَعد به المتقين فيما بعد الموت، والذي وعدكم على التقوى والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله، فإذا حضرك الخصم الجاهل الخَرِق ممن قدر الله أن يوليك أمره وأن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٩٢، تاريخ الطبري ٦/٥٦٦ - ٥٦٧.

تبـتلى به فرأيت منه سـوء رِعَة وسـوء سـيرة في الحق الذي عليـه والحظ الذي له فسدِّده ما استطعت وبصِّره، وارفق به وعلِّمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضـلا، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حـجة اتخذت بها علـيه، فإن رأيت أنه أتى ذنبا اسـتحق فيه عـقوبة فلا تعاقـبه بغضب من نفـسك عليه، ولكن عاقـبه وأنت تتحـرى الحق في قدر ذنبـه بالغًا ما بلغ، وإن لـم يبلغ ذلك إلا قدر جَلدة واحدة تجلده إيـاها، وإن كان ذنبه فـوق ذلك، ورأيت عليه من العـقوبة في ذلك قَتْلاً فمـا دونه فأرجعه إلى السجن، ولا يسرعنّ بك إلى عقـوبته حضور من يحـضرُك، فـإنه لعمـري ربما عاقب الإمـام لمحضـر جلسائه، ولتـأديب أهل بلده ولتغامزهم به، وما من إمام له جلساء إلا سـيكون ذلك فيهم وما من قوم يسمعون بقضاء إمام إلا سيخـتلفون فيه على أهوائهم، إلا من رحم الله، فإن من رحم الله لا يخـتلفون في قـضـاء، فإنه قـال: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُـخْـتَلِفِينَ** (١١٨) **إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وإذا استـجهلت فـتثبت، وإذا نظر إليـك من حولك ما أنت فـاعل بسفـيه من رعيَّتك إن سفه أو أخطأ خطيئة فاعمد في ذلك للذي ترى أنه أَبَرُّ وأَتقى وخيرٌ لك غدًا فيما بعد الموت، ولا يطربك نظرهم إليك ولا حديثهم عنك فإنهم لا يبقى في أنفسهم حـديثٌ أحبُّوه أو كرهوه إلا قليلاً إلا أَبْدَوْهُ. فـاغتنم كل يومٍ أخرجك الله فيه سـالمًا، وكل ليلةٍ مضت عليك وأنت فيهـا كذلك وأكثرْ من دعاء الله بالعـافية لنفـسك، ولمن ولاكَ الله أمره، فـإن لك في صلاحـهم ما ليس لأحـد منهم وإن عليك في فسـاد الرجل الواحد فمـا فوق ذلك ما ليس على أحـد منهم. ولا تبتغ منهم جزاء خـير أحسنتـه إليهم، ولا بتسـديد سددتهم، ولا تطلب بعـمل صالح عملته فيهم جـزاءً ولا ثوابًا ولا مدحةً ولا حظوة، وليكن ذلك لمن لا يعطي الخير ولا يصرف السوء غيره، ثم تعاهد صاحب بابك وصاحب حرسك وعاملك المقيم عندك والذين تبعث، فـلا يعملون في شيء ما تحت يدك بغشم ولا بظـلم، وأكثر المسألة عنهم، فمن كان منهم مـحسنًا نفعه ذلك، ومن كان مسيئًـا استبدلت به من هو خير منه.

نسأل الله ربنا برحمته وقدرته على خلقه أن يغفر لنا ذنوبنا وأن ييسر لنا أمورنا، وأن يشرح لنا صدورنا بالبر والتقوى، والعمل فيما يحب ويرضى، وأن يعصمنا من المكاره كلها، وأن يجعلنا من الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، ومن المتقين الذين لهم العاقبة، والسلام عليكم ورحمة الله[1].

ففي هذا الكتاب بيان خطورة الولاية وأنها مزلة قدم، ولا يسلم من زلاتها إلا من رحمه الله تعالى، فالولاية إما عمل صالح عظيم الدرجات لمن عف وعدل واستقام، وإما عمل سيئ يؤدي إلى الهلاك لمن رتع وجار وانحرف، ولولا أنها في بعض صورها عمل صالح لما أقدم عليها من يخشى الله ويتقيه.

وإذا تقلد الإنسان ولاية برز هوى نفسه الأمارة بالسوء لكثرة المغريات، فإذا لم يتصور الإنسان نفسه التي بين جنبيه عدوًّا له في بعض الأحيان فإنه سالك سبيل الهلاك، لأنه لن يعمل على كبح جماح النفس وتقويمها، وقد تكره النفس الاستقامة على منهج الإسلام الكامل فلابد من إكراهها على سلوك هذا السبيل، وسيتحول الأمر بعد شيء من المعاناة - تقصر أو تطول - إلى منهل عذب وسبيل رحب، تهواه النفس المطمئنة وتنافس عليه.

والمسؤول يبتلى بمعاملة الناس على مختلف أذواقهم ومشاربهم، وقد تتحول هذه المعاملة إلى معاناة ومكابدة، فلا يغتر المسؤول بكونه أقدر على أفراد رعيته منهم عليه فيعاملهم بشيء من العنف والقسوة وإن ساءت معه أخلاقهم وغلظت معه طباعهم، بل عليه أن يبذل جهده في تعليم الجاهل الأدب وحسن المعاملة، فإن التعليم من الأعلى له دوره المؤثر، حيث إنه يملك هيبة الولاية، فإذا تحول عما يُنتظر منه عادة من محاولة فرض السيطرة إلى محاولة تعليم الناس وتهذيب أخلاقهم فإن النفوس تُكْبِر ذلك فيه وتقبل على توجيهه.

وإذا أخطأ أحد أفراد الرعية خطأً يستحق عليه العقوبة فمن واجب الوالي أن يتأنى في إجراء العقوبة، وأن لا يحكم عليه وهو غضبان، فإن مع الغضب شيطانًا، والقوة الغضبية أميل إلى الجور والعسف، ولذلك أمر النبى ﷺ من

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٨١-٨٣.

غضب بالوضوء أو بالقعـود إن كان قائمًا ليزول غضبه قـبل أن يتصرف، وليندحر شيطانه.

وإن من فضائل بعض الأنظـمة الإدارية المعاصرة أن المسؤول لا يجـري العقوبة وحده، وإنما يـحيل الأمر إلى لجنـة مختـصة بدراسـة القضـايا وتحديد العـقوبات المناسبـة، فإن هذا النظام يبـعد حالة التـصرف مع الغضب تمـامًا، ويتيح الفـرصة لدراسة الأمـور بتؤدة وروية ومشورة بين عـدد من الأفراد، فهو أدنى إلى التـثبت والعدالة، وأبعد من المجازفة والجور.

وإن مما يحمل المسـؤول أحيانًا على القسـوة والحيف محاولة الإبقاء عـلى هيبة السلطة والظهور أمام جلسائه ومن تحت إدارته بمظهـر القوة، وقد يداهنه من حوله بتحريضه على المخالف لظنهم بأن ذلك يكسبهم رضاه، فيسهمون بذلك في حمله على الظلم.

وقد يحـصل ما هو ضـد ذلك إذا كان لبـعض الجلساء أو الإداريـين غرض في التخفيف عن المخالف فيحـاولون أن يؤثروا على المسؤول ليعفو عن المخالف، وقد يترتب على ذلك تضييع بعض الحقوق أو الجرأة على المخالفة.

ولذلك فإن من أقـوى العواصم من الانحـراف في الحكم أن تحال القـضايا إلى لجانٍ مـتخصـصة لدراستـها وتقدير العـقوبة المناسبـة مع حسن اختـيار أعضـائها ومراقبتهم.

وإن مما أوصى به عمر بن عبد العزيز في هذا الخطاب أن لا يستجلب الوالي بما يقدمه من خـير وإصلاح ثناء الناس ولاجزاءهم، وإنما يطلـب من الله تعالى الأجر والثواب على عـمله ليكون خالصًا،وإذا كـان كذلك فإنه أدعى للنجـاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

خبره مع المرأة التي فرض لبناتها من بيت المال:

أخرج ابن عبد الحكم رحمه الله، قـال: وقدمَتْ امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا فَلِجِي إن أحبـبت، فدخلت المرأة على فـاطمة وهي جالسـة في بيتـها، وفي يدها

قطن تعالجه، فسلمت فردت عليهـا السلام وقالت لها: ادخلي، فلما جلست المرأة رفعت بصرهـا فلم تر في البيت شيئًـا له بال، فقالت: إنما جئت لأعمـر بيتي من هذا البيت الخرب، فقالت لها فاطمة: إنما خَرَّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك.

قال: فأقـبل عمر حتى دخل الدار، فمـال إلى بئر في ناحية الدار فـانتزع منها دلاء فصبهـا على طين كان بحضرة البيت - وهو يكثر النظر إلى فـاطمة - فقالت لها المرأة: اسـتتري من هذا الطيـان فإني أراه يديم النظر إليك، فـقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين.

قال: ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته، فمال إلى مصلًّى كان له في البيت يصلي فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هي هذه، فأخذ مكتلا له فيه شيء من عنب فجعل يتـخير لها خَيْـرَه يناولها إياه، ثم أقبل عليهـا فقال: ما حاجـتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسْلٌ كُسْد، فجئتك ابتغي حسن نظرك لهن، فـجعل يقـول: كسل كـسـد، ويبكي، فأخـذ الدواة والقـرطاس فكتب إلى والي العراق، فقال سـمِّي كبراهن، فسمتـها ففرض لها، فقـالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثـالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففـرض لها، فلما فرض للأربع استفزَّها الفرح فدعت له فجزَّته خيرا، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهن حيث كنت تُوْلين الحمد أهله، فَمُرِي هؤلاء الأربع يُفِضْن على هذه الخامسة.

فخرجَتْ بالكتـاب حتى أتت به العراق، فدفعتـه إلى والي العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشـتد بكاؤه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتـاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فـقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه في شيء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها[1].

في هذا الخبر عدة مواقف:

الأول: شهادة تلك المرأة على زهد عمر بن عبـد العزيز، حيث لم تجد في بيته شيئًا يُذكر من الأثاث، فيئست من الحصول على ما يصلح شأنها من صاحب ذلك البيت الخرب، ولكن زوجة عـمر فاطمة بنت عبد الملك طمأنتـها، حيث بينتْ لها

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٩.

أن خراب بيت أمير المؤمنين، إنما هو بسبب عمارته بيوت الرعية، حيث اقتصد في الإنفاق على أسرته وأقاربه، ووسع في الإنفاق على الرعية.

الموقف الثاني: في تواضع عمر بن عبد العزيز البالغ، وقد ظهر ذلك في قيامه بإصلاح ما خرب من بيته بنفسه، حيث صار يخلط الطين ويصلح به ما تهدم من بيته، حتى ظنَّته تلك المرأة طيَّانا، وحيث قام بعد ذلك بانتقاء جيد الفاكهة ومناولته تلك المرأة المسكينة.

ولاشك أن تواضع الكبار وقيامهم بمثل هذا العمل المدهش، يُعدُّ من أهم أسباب تقوية المحبة وتثبيت الولاء كما أنه من أبلغ الوسائل لتربية الأمة على التواضع، لأن من في قلبه ميل إلى الكبر سيجد في نفسه صدودًا عن ذلك، وقناعةً بالاعتدال في السلوك، تأسيًا بأولئك الأكابر.

والموقف الثالث: في اهتمامه بأمر تلك المرأة المسكينة حيث فرض لها ولبناتها ما يكفيهم من بيت مال المسلمين، بينما نجده قويّا متصلبا في معاملة الأكابر، الذين يريدون أن يأخذوا من مال المسلمين ما لا يحل لهم، فهو لين متواضع لطلاب الحق، شديد قوي على طلاب الباطل.

الموقف الرابع: في جواب عمر لتلك المرأة حينما شكرته لَمَّا فرض لبنتها الرابعة بعد أن كانت تشكر الله تعالى، حيث أوقف فرض العطاء لبنتها الخامسة وأمرها بأن تُفيض عليها من عطاء أخواتها، وهذا الموقف يبين عظمة فهم عمر لتوحيد الله تعالى، ومبلغَ تذكره لعظمته، وحمده لنعمته، وقد قام بما قام به من هذا التصرف ليعطي تلك المرأة وغيرَها درسًا عمليّا في التوحيد هو أبلغ من الدروس النظرية.

وليس معنى هذا أن شكر المحسنين والدعاء لهم يتنافى مع التوحيد فإن النبى ﷺ يقول «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[1]، ويقول «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تُرَوا أنكم قد كافأتموه**»[2]، وعمر بن عبد العزيز من أعلم المسلمين بالسنة ولكن لما بدأتْ تلك المرأة بحمد الله تعالى ثم

(١) مسند أحمد ٢/٢٥٨.

(٢) سنن أبي داود، رقم ١٦٧٢، الزكاة ١/ ٣١٠، مسند أحمد ٢/٦٨.

قطعت ذلك وتحولت إلى شكره هو والدعاء له أحس بأن ذلك مخلٌّ بالتوحيد لأن فيه إشعارًا بتقديم شكر المخلوق على شكر الخالق جل وعلا.

إنصافه الذميين من أهل نجران:

أخرج المؤرخ أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الحسن البصري قال: جاء راهبا نجران إلى النبى ﷺ فعرض عليهما الإسلام فقالا: إنا قد أسلمنا قبلك، فقال: **كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث: أكلكما الخنزير، وعبادتكما الصليب، وقولكما لله ولد.** قالا: فمن أبو عيسى قال الحسن: وكان النبي ﷺ لا يعجل حتَّى يأمره ربُّه فأنزل الله تعالى ﴿**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٨، ٥٩].

فقرأها رسول الله ﷺ عليهما ثم دعاهما إلى المباهلة[١] وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين فقال أحدهما لصاحبه: اصعد الجبل ولا تباهله فإنَّك إن باهلتهُ بُؤتَ باللعنة، قال: فما ترى قال: أرى أن نعطيه الخراج ولا نباهله.

ثم ذكر كتاب النبى ﷺ إليهم وفيه أنه وضع عليهم ألفي حلة في كل عام.

ثم ذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أمضى ذلك عليهم.

ثم ذكر رواية من خبر سالم بن أبي الجعد قال: كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم فأتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا: أجْلنا، وكان عمر قد خافهم على المسلمين فاغتنمها فأجلاهم، فندموا بعد ذلك وأتوه فقالوا: أقِلْنا، فأبى ذلك، فلما قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتوه فقالوا: ننشدك خَطك بيمينك[٢] وشفاعتك لنا عند نبيك إلا أقَلْتَنا فقال: إن عمر كان رشيد الأمر وأنا أكره خلافه.

وذكر أن بعضهم جلا إلى الشام وبعضهم إلى الكوفة ونزلوا في ناحية سُمِّيت النجرانية باسمهم.

---

(١) المباهلة: الملاعنة وهي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا.

(٢) يعني أنه هوالذي كتب لهم الكتاب في عهد رسول الله ﷺ.

وذكر أنهم أتوا إلى عـثمان بن عـفان رضي الله عنه وأنه كتـب إلى عامله على الكوفة الوليد بن عقبة بأن يضع من جزيتهم مائتي حلة لوجه الله تعالى وعُقْبَى لهم من أرضهم وقال: وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة.

وذكر أنهم لما ولي معـاوية رضي الله عنه أو يزيد بن معاوية شكوا إليـه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم منهم وأنهم أحضروا كتاب عثمان بن عفان رضي الله عنه بما حطَّ عنهم من الحلل، وقالـوا: إنما ازددنا نقصانا وضعـفا فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة.

قـال: فلما ولي الحـجاج بن يوسف الـعراق وخـرج ابن الأشعث عليـه اتهم الدهاقين بموالاته واتهمهم معهم فردهم إلى ألف وثمانمائة حلة، وألزمهم بنوع جيد منها.

قال: فـلما ولي عـمر بن عـبد العـزيز شكوا إليه فناءهم ونقـصانهـم وإلحاح الأعراب بالغارة عليـهم وتحميلهم إياهم المؤن المجحفـة بهم وظلم الحجاج إياهم، فأمـر فأحصـوا فوجدوا على العـشر من عدَّتهم الأولى، فـقال: أرى هذا الصلح جزية على رؤوسهم وليس هو بصلح على أرضـيهم، وجزية الميت والمسلم ساقطة فألزمهم مائتي حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم[1].

فهـذا الخبر يبـين لنا شيئًـا من علم أميـر المؤمنين عمر بن عـبد العـزيز وعدله ورحمتـه، فهو قد أدرك بـأن جزية الذميين من أهل نجران على رؤوسـهم وليست على أراضيهم، والأفراد ليس عددهم ثابتـا بل يزيدون وينقصون، ولما كان عددهم قد أصبح على عشر من عددهم أيام رسـول الله ﷺ فإن جزيتهم ينبغي أن تنقص إلى العشر، وهذا من الـفقه في معرفـة السنة النبوية، وقد توَّج فهـمه هذا بالعدل والرحمـة، حيث أنقص جزيتـهم إلى العشر، وهو بهذا يـكون قد طبق سنة النبي ﷺ في تقدير جزيتهم.

إنصافه الذميين من أهل قبرص:

أخرج البـلاذري من طريق محمـد بن سعد عن الواقـدي بإسناده قال: لم يزل أهل قبـرص على صلح معـاوية حتى ولي عبـد الملك بن مروان فـزاد عليهم ألف

(١) فتوح البلدان/ ٨٦ - ٩١.

دينار، فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم، ثم لما ولي هشام ابن عبد الملك ردها، فجرى ذلك إلى خلافة أبـي جعفر المنصور فقال: نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثر بظلمهم فردهم إلى صلح معاوية[1].

فهذا أيضًا مَثَلٌ من إنصاف أمير المؤمنين عـمر بن عبد العزيز في معاملة الذميين من أهل قبرص حيث وضع عنهم الزيادة التي رآها ظلمـا لهم، وقد تأسى به أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور في هذه العدالة رحمهما الله تعالى.

إنصافه أحد المظلومين من اليمن:

ذكر أبو الحسن علي بن محمد الماوردي أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة فصادفه رجل ورد من اليمن متظلمًا فقال:

تدْعـون حيـران مظلومًـا ببـابكم فـقـد أتاك بعـيـد الـدار مظلوم

فقال ما ظُلامتك؟ فقال غصبني الوليـد بن عبد الملك ضيعتي، فقال: يا مزاحم ائتني بدفتر الصوافي فوجد فيه: أصفى عـبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان، فقال أخرجها من الدفتر وليكَتبْ بردِّ ضيعته إليه ويُطلقْ له ضِعف نفقته[2].

وهكذا طمع في عدل أمـير المؤمنين أبناء البلاد البـعيدة، فـجاء هذا الرجل من اليمن يطلب حقه الذي اغـتُصب منه، فأعاد إليه عمر أرضه وأعطاه ضِـعْف نفقته التي صرفها في سفره، ليكون ذلك تعويضًا عما صرفه في قدومه وما سيصرفه في عودته، لأن من حـقه أن تعود إليه أرضـه المغتصـبة وهو في بلده دون أن يتكلف شيئًا.

سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز:

أرسل عطاء بن رباح إلى فاطمـة بنت عبد الملك يسـألها عن أحوال عمـر بعد موته فـقالت: أفـعلُ، إن عمر رحـمة الله عليـه كان قد فَـرَّغ للمسلمين نفـسه، ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمـسى مساء لم يفـرغ فيه من حوائج يومـه وصل يومه بليلته، إلى أن أمسى مساءً وقد فرغ من حـوائج يومه، فدعا بسراجه الذي كان من

(١) فتوح البلدان/ ٢١٠ - ٢١١.
(٢) الأحكام السلطانية/ ١٠٣.

ماله، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعًا رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائمًا، فدنوت منه فقلت: يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال: أجل فعليك بشأنك وخلِّيني وشأني، قالت: فقلت: إني أرجو أن أتَّعظ، قال: إذًا أخبرك، إني نظرت فوجدتُني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، وأشباهَ ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائلي عنهم، وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم، فخفت أن لا يقبل الله تعالى مني معذرة فيهم، ولا تقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة، فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني، ووجع لها قلبي، فأنا كلما ازددت لها ذكرًا ازددت منها خوفًا، فاتَّعظي إن شئت أو ذري[1].

وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسؤولية التي تحمَّلها، حيث تذكَّر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات، على الرغم مما يبذله من جهد متواصل في التعرف على أحوال الأمة، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشي أن يكون قد بقي من المسلمين من لم تُرفع إليه حاجته، فيكون مسؤولا عنه.

وفي تذكُّره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد، فأصبح ذلك دافعًا له إلى العدل والرحمة، والمبالغة في تفقد أحوال الأمة.

وفي بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف من الزلل، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات، وقوي أمام جميع التحديات، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكر النار والحساب فهان عليه كل خطب عظيم، وصغر في نظره كل أمر جسيم.

خبره مع الخوارج:

قال المؤرخ أبو الحسن محمد بن الأثير: في هذه السنة -يعني سنة مائة- خرج شوذب- واسمه بسطام- من بني يشكر فى «جوفي» وكان في ثمانين رجلا، فكتب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٧٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٦٠، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤٥/ ١٩٧.

عمر بن عبد العـزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة: أن لا يحـركهم حتى يسفكوا دما ويفـسدوا في الأرض، فإن فـعلوا وجه إليهم رجـلا صليبا حـازما في جند، فبعث عبد الحميد محمد بن جرير البجلي في ألفين، وأمره بما كتب به عمر.

وكتب عمر إلى بسطام يسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يتحرك، فكان في كتاب عمر: بلغني أنك خرجت غضبا لله ولرسوله ولستَ أولى بذلك مني فهلمَّ إليَّ أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلتَ فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك.

فكتب بسطام إلـى عمـر: قـد أنصـفت وقـد بعـثت إليك رجلين يدارسـانك ويناظرانك، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشيًّا اسمه عاصم ورجلا من بني يشكر، فقدما على عمر بـ «خناصرة» فدخـلا إليه، فقال لهما: ما الذي أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمـتم؟ فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك إنك لتـتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضى من الناس ومشورة أم ابتزتهم أمرهم؟ فقال عمر: ما سألتهـم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها، وعهد إلي رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره علي أحد ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضى بكل من عـدل وأنصف مَنْ كان من الناس، فـاتركـوني ذلك الرجل فإن خـالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم.

فقـالا: بيننا وبينك أمر واحد قـال: ما هو؟ قالا: رأيناك خالفت أعـمال أهل بيتك وسميتهـا مظالم فإن كنت على هدى وهم على الضلالة فالعنهم وابرأ منهم، فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فاخطأتم طريقهـا إن الله عز وجل لم يبـعث رسوله ﷺ لعـانا، وقال إبراهيم عليـه السلام ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقـال الله عز وجل: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٩٠] وقـد سميت أعـمالهم ظلمًا وكفى بذلك ذما ونقصا، وليس لعن الذنوب فريضة لابد منها فإن قلتم: إنها فريضة فأخبـرني متى لعنت فرعون؟ قال: ما أذكر متى لعنتـه قال: أفيسعك أن لا

تعلن فـرعون وهو أخـبث الخلق وشرهم ولا يـسعني أن لا ألعن أهل بيـتي وهم مصلون صائمون؟

قال: أما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان فكان مَنْ أقـرَّ به وبشـرائعه قـبل منه فـإن أحدث حـدثا أقيم عـليه الحـد، فقـال الخارجي: إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده، قال عـمر: فليس أحـد منهم يقول: لا أعـمل بسنة رسول الله ﷺ ولكـن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء.

قال عاصم: فابرأ مما خالف عملك ورد أحكامـهم، قال عمر: أخبرني عن أبي بكر، وعمر أليـسا على حق؟ قالا: بلى قال: أتعلمـان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دمـاءهم وسبى الذراري وأخذ الأمـوال؟ قالا: بلى قـال: أتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشـائرهم بفدية؟ قالا: نعم قال: فهل برئ عمر من أبي بكر؟ قالا: لا، قال: أفتبرؤون أنتم من واحد منهما؟ قالا: لا.

قال: فـأخبـرني عن أهل النهروان وهم أسـلافكم هل تعلمان أن أهل الـكوفة خرجـوا فلم يسفكوا دما ولم يأخـذوا مالا، وأن من خرج إليهم من أهل البـصرة قتلوا عـبد الله بن خباب وجـاريته وهي حامل؟ قالا: نعم قـال: فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واسـتعرض؟ قالا: لا، قال: أفتبـرؤون أنتم من أحد من الطائفتين؟ قالا: لا، قال: أفيـسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصـرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسـعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد؟ فاتقوا الله فإنكم جهـال تقبلون من الناس ما ردَّ عليهم رسـول الله ﷺ وتردُّون عليهم ما قبل، ويأمن عندكم من خـاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده، فـإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن مـحمدًا عبده ورسـوله وكان من فعل ذلك عند رسـول الله آمنا وحـقن دمه ومـاله وأنتم تقـتلونه، ويأمن عندكم سـائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم.

فقال اليشكري: أرأيت رجلا ولي قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غيـر مأمـون أتراه أدى الحق الذي يلزمه لله عـز وجل أو تراه قد سـلم؟ قال

عمر: لا قال: أفـتُسْلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يـقوم فيه بالحق؟ قال: إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي، قال: أفترى ذلك من صُنع من ولاه حقا؟ فبكى عمر وقال: أنظراني ثلاثا.

فخرجـا من عنده ثم عادا إليه فقال عـاصم: أشهد أنك على حق، فقـال عمر لليـشكري: ما تقـول أنت؟ قال: مـا أحـسن ما وصـفت ولكني لا أفتـات على المسلمين أمرا، أعرضُ عـليهم ما قلت وأعلم ما حجـتهم، فأما عـاصم فأقام عند عمر فأمر له عمر بالعطاء فتوفي بعد خـمسة عشر يومًا، فكان عمر بن عبد العزيز يقول: أهلكني أمر يزيد وخُصمت فيه فأستغفر الله[1].

في هذا الخبر تبين لنا بروز أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وتفوقه في مجالات عديدة، منها:

١- أنه التـزم المنهج الإسلامي فـي معـاملة المخالفين، فـحـينما خـرج أولئك الخوارج في عهـده لم يسلك معهم طريقة أكـثر الولاة الذين سبقـوه، حيث كانوا يعقدون الألوية لقـتالهم من غير أن يدخلوا معـهم في حوار علمي، بل أرسل إلى أميرهم وطلب منه أن يحـضر لمناظرته، وأبدى استعداده للرجوع عـما هو عليه إذا تبين له أن الحق في غـيره، وهذا التـصـرف مع الخوارج الذين يُعـدُّون من أعنف المخالفين يدل على تجـرده من هوى النفس، وأن هدفه الأعلى تطبيق الإسـلام كما جاء من عند الله تعالى.

٢- غزارة علمـه بالكتاب والسنة والتـاريخ، حيث دخل في حوار مع قـوم قد كانوا فرَّغوا أنفسهم لقضايا علميـة محددة خالفوا فيها السواد الأعظم من المسلمين وتعمقوا فيها واستعدوا للجدل والمناظرة حولها، فأفحمهم وقطع حججهم واستطاع أن يؤثر على الرجلين اللذين أوفـدوهما حتى اقـتنعا برأيه في أغلب القـضايا التي ناظراه فيها.

٣- حينما ناقشه الخارجيان في ولاية يزيد بن عبد الملك وظهر له الحق في ذلك لم يكابر ولم يغير الحقائق، ولم يدافع عن الواقع الذي هو فيه وإن كان باطلا، بل

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٥٥ - ١٥٦، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم/ ١٢٧ - ١٣١، وتاريخ الطبري ٦/ ٥٥٥.

ظهـر منه ما يدل على اعـترافـه بأن ذلك الأمـر باطل، وقوله «أهلكني أمـر يزيد وخُصِمت فيه فأستغـفر الله» يدل على أنه كان يرى أن تصحيح ذلك الأمر سيوقع في فتنة كبيرة يترتب عليها سفك دماء المسلمين، وهو شديد الورع في ذلك.

وذكر الحـافظ ابن الجوزي من خـبر الوليـد بن مسلم قـال: قال الأوزاعي: لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب إليه رجل من الشراة[1] يقال له عمرو بأبيات:

قل للمـولَّى على الإسلام مؤتـنفا ... وقـد يرى أنه رثُّ القـوى واهى
إذ رابه مـعـشـر عـدُّوه مـأكلة ... بنخـوة الملـك والإسـراف والبـاه
إنا شـرينـا بدين الله أنـفـسـنا ... نبـغي بـذاك إليـه أعظم الجـاه
ينهى الولاة بحد السيف عن سرف ... كـفـى بذاك لهم من زاجـر ناهي
وإن قصـدت سبيل الحق يا عـمرا ... آخـاك في الله أمـثالي وأشـبـاهي
وإن لحـقت بقـوم كـنت واعظهم ... في جـور سـيـرتـهم فـالحكم لله

قال فأجابه عمر بن عبد العزيز:

يا أيهـا الرجل المهـدي نصيـحتـه ... إن المحـاسن والتـوفـيق بالله
إن كـان أمـر من السلطـان تنكره ... فما عـرى الدين والإسلام بالواهي
هذا الكتـاب كـتـاب الله نقـرؤه ... مـصـدَّق الوحي فـيـنا آمـر ناهي
فقـد يَزِلُّ الذي يبغى الهـدى رهقا ... عن الشـريعة وهو العـالم الداهي
الملك يا عـمـرو ملك الله خـالقنا ... والحكم يا عـمرو مـردود إلى الله

قال فأتاه فبايعه ولم يخرج عليه[2].

وهذا الخبر يدل على تـفوق أمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز في إنشـاء الشعر حـيث رد بهذه الأبيـات الشـعرية على البـديهـة، وهي أبيات رصـينة في مـبناها ومعناها.

***

(١) يعني من الخوارج.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/١٩٧.

موقف لأمير المؤمنين يزيد بن عبدالملك رحمه الله

من أخبار الانتصار للمظلومين ما ذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة أربع ومائة، قال: وفي ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبدالملك عن إمرة الحرمين عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك، فألح عليها وتوعدها، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه، فبعث إلى عبدالواحد بن عبدالله النضري نائب الطائف فولاه المدينة، وأن يضرب عبدالرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكئ على فراشه بدمشق، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار، فلما بلغ ذلك عبدالرحمن ركب إلى دمشق واستجار بمسلمة بن عبدالملك، فدخل على أخيه فقال: إني لي إليك حاجة، فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك، فقال: هو والله حاجتي، فقال: والله لا أقبلها ولا أعفو عنه، فرده إلى المدينة فتسلمه عبدالواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف، فسأل الناس بالمدينة.

وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهرا، وكان الزهري قد أشار عليه برأي سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ولم يفعل، فأبغضه الناس وذمه الشعراء، ثم كان هذا آخر أمره[1].

هذا وإن الناظر في هذا الخبر يرى شدة في الحكم على ذلك الأمير، ولكن إذا قورن ذلك بجريمته التي كان يريد ارتكابها فإن تلك العقوبة تبدو مناسبة، لأن مهمة الحاكم هي الحكم بين الناس وإدارة أمورهم والعدل بينهم، فأما حينما يستغل الحاكم سلطته للاعتداء على حرية أفراد الرعية فإنه جدير بأن يبعد عن الولاية وأن يعاقب على ذلك العدوان، ولعل هذا الموقف الجيد في الشهامة والعدالة من يزيد ابن عبدالملك يخفف من آثامه التي اشتهر بها في اللهو والمظالم.

***

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٨.

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله

من ذلك ما ذكـره الإمام الطبري مـن خبر إسـحاق بن موسى بن عـيسى: أن المنصور ولَّى رجلا من العرب حضرموت، فكتب إليه والي البريد أنه يُكثر الخروج في طلب الصيد ببُزَاةٍ[1] وكلاب أعدَّها، فعزله وكتب إليه، ثكلتْك أمك وعدمتك عشيرتك؟ ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش؟! إنا إنما استكفيناك أمور الناس ولم نسـتكفك أمـور الوحش، سلِّم ما كنت تلـي من عملنا إلى فـلان بن فلان، والحْق بأهلك ملوما مدحورا[2].

فهذا مثال على اهتمام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور بالمسؤولية حيث عرف ما يجرى من ذلـك الوالي على بعد المسـافة بينه وبينه، فـاتخذ هذا الإجـراء الصارم ضده، وهذا يدل على حـزم المنصور وجدِّه، وبذلك استطاع أن يسـوس دولة تمتد من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا مع ما اكتنفها من الفتن الداخلية وحداثة عهد هذه الدولة.

***

(١) هي الطيور التي تستعمل في الصيد.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٦٨.

من مواقف القاضي أبي يوسف رحمه الله

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم أنه قال: وليتُ هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولا ميل إلى أحد إلا يوما واحدا، جاءني رجل فذكر أن له بستانا وأنه في يد أمير المؤمنين، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لي اشتراه لي المهدي، فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يُحضره لأسمع دعواه، فأحضره فادعى بالبستان، فقلت: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: هو بستاني، فقلت للرجل: قد سمعت ما أجاب، فقال الرجل: يحلف، فقلت: أتحلف يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، فقلت: سأعرض عليك اليمين ثلاثا فإن حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين، فعرضتها عليه ثلاثا فامتنع، فحكمت بالبستان للمدعي، قال: فكنت في أثناء الخصومة أود أن ينفصل، ولم يمكني أن أُجلس الرجل مع الخليفة، وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان للرجل[1].

فهذا شيء عظيم أن يحكم القاضي أبو يوسف تلك السنوات الطويلة وهو يتحرى العدل ويطبقه ولم يظلم أحدا، وإن كان قد شعر بخطئه في مقدمات الحكم في هذه القضية، حيث لم يُجلس الخليفة وخصمه في مجلس سواء، مع أنه قد حكم على الخليفة لصالح خصمه، وكونه أصدر هذ الحكم، وكونه أيضا أظهر ندمه على عدم المساواة بين الخليفة وخصمه، دليل على قوة إيمانه وورعه.

فما أعظم هذا القاضي وأمثاله من القضاة الذين يحكمون على أعلى مسؤول في العالم!!

***

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٧.

من مواقف القاضي حفص بن غياث رحمه الله تعالى

قال ابن خلكان: قال حميد بن الربيع: لما جيء بعبد الله بن إدريس وحفص بن غياث ووكيع بن الجراح إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ليوليهم القضاء دخلوا عليه، فأما ابن إدريس فقال: السلام عليكم وطرح نفسه كأنه مفلوج، فقال هارون: خذوا بيد الشيخ لا فضل في هذا، وأما وكيع فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أتصرف بها منذ سنة، ووضع إصبعه على عينه وعنى إصبعه[1]، فأعفاه، وأما حفص بن غياث فقال: لولا غلبة الدين والعيال ماوليت[2].

فهذه مواقف عالية من هؤلاء العلماء حيث تورع عبدالله بن إدريس ووكيع بن الجراح الرؤاسي من تولي القضاء، والامتناع عن القضاء منهج سار عليه كثير من العلماء، لما قد يتعرض له القاضي من ضغوط من الناس أو من الولاة وغير ذلك من الفتن، مع أن القاضي إذا عدل ولم يرتكب مأثما فإنه يؤدي عملا من أزكى الأعمال الصالحة، ولكن أولئك العلماء يأخذون بقاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

أما حفص بن غياث فإنه قد أجاب إلى القضاء، حيث دعته ضرورة المعيشة إلى ذلك، ولم يكن له هدف في الجاه والسمعة ولا في التكثر من الدنيا، ولقد كان مثالا للعدل في القضاء.

ومن أمثلة عدله ما ذكره ابن خلكان من خبر غنام بن حفص قال: باع رجل من أهل خراسان جمالاً بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أُم جعفر[3] فمطله ثمنها وحبسه عن سفره، وطال ذلك على الرجل، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوره فقال له: اذهب إليه فقل له: أعطني ألف درهم وأحيل عليك ببقية المال وأخرجُ إلى خراسان: فإذا فعلتَ هذا فأخبرني حتى أشير عليك، ففعل الرجل وأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره فقال: عد إليه فقل له: إذا ركبت غدًا فطريقك على القاضي تحضر، وأُوكلُ رجلاً بالقبض

(١) يعنى أنه قصد بقوله «ما أتصرف بها» إصبعه وأوهم أنه يقصد عينه أى لا يبصر بها.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٨.

(٣) هي زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد.

على المال وأَخرجُ، فـإذا جلس إلى القاضي فادّع عليـه بما بقي لك من المال، فإذا أقر حبسه القاضي وأخذت مالك.

فرجع إلى مـرزبان فسألـه فقال: انتظرني ببـاب القاضي، فلمـا ركب من الغد وثب إليـه الرجل وقال: إن رأيت أن تتـرك إليَّ القـاضي حتى أُوَكِّل بقـبض المال وأَخرجُ، فنزل مـرزبان إلى حفص المذكور فقـال الرجل: أصلح الله القاضي، لي على هذا الرجل تسعة وعـشرون ألف درهم، فقال حفص: ما تقـول يا مجوسي؟ قال: صدق، أصلح الله القـاضي، فقال القاضي: ما تقول يا رجل فـقد أقرّ لك، فقال: يعطيني مالي، فأقبل حفص على المجوسي فقال: ما تقول؟ فقال: هذا المال على السيدة، فقال: أنت أحمق تقر ثم تقول على السيدة؟ ما تقول يا رجل؟ قال: أصلح الله القـاضي إن أعطاني مـالي وإلا حبـستَه، قـال حـفص: ما تقـول يا مجوسي؟ قال: المال على السيدة، فقال حفص: خذوا بيده إلى الحبس.

فلما حُبس بلغ الخبر أم جعفر فغضبت وبعثت إلى السندي: وجِّهْ إلى المرزبان، وكانت القـضاة تحبس الغرمـاء في مجلس الشرط، فأخـرجَه، وبلغ الخبر حـفصًا فـقال: أحـبس أنا ويُخـرج السندي؟ لاجلست مـجلسي هذا أو يردّ مـرزبان إلى الحبس، فـجاء السندي إلى أم جـعفـر فقـال: الله الله فيَّ، إنه حفص بن غـياث وأخاف من أمـير المؤمنين أن يقول لي: بأمـر من أخرجتـه؟ رديه إلى الحبس، وأنا أكلم حفصًا في أمره، فرجع مرزبان إلى الحبس[1].

فهذا الخبـر فيه موقف قوي للقاضي حفص بن غـياث، حيث حكم على وكيل زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد، حـيث غضب حينما أخرج رئيس الشرطة ذلك الرجل الذي حبسه حفـص وصمم على ترك القضاء إن لم يرجع ذلك الرجل إلى الحبس.

وهكذا تكون مواقف القضاة الذين يريدون بعملهم وجه الله تعالى ولا يعظمون معه مخلوقًا يرجونه أو دنيا يعملـون لها، فإن من كان كذلك فإن عظمة الله تعالى وخشيـته ورجاءه تتضخم فى القلب حـتى تملأه فلا يكون فيه مـتسع لأي قوة من

(١) وفيان الأعيان ٢/ ١٩٩.

القوى الدنيـوية، وبذلك يكتسب صـاحب هذا القلب جرأة فـائقة وقوة خـارقة، ويسخر الله تعالى له قلوب عباده إكراما له ومثوبة على خلوص نيته وحسن عمله.

ومن مواقفه العاليـة في القضاء أنه كان يَعدُّ نفسه أجيـرا فلا يشتغل في الوقت المخصص للقضاء بغيره، حتى لو كان الذي سيشغله أمير المؤمنين، وفي ذلك يقول ابن خلكان: وقـال الخطيب: كان حـفص بن غياث المذكـور جالسـا في الشرقـية للقضاء[1] فأرسل إليـه الخليفة يدعوه فـقال لرسوله: حتى أفـرغ من الخصوم، إذ كنت أجيرا لهم، وأصير إلى أمير المؤمنين، ولم يقم حتى تفرق الخصوم[2].

وكان لا يَعدُّ نفـسه مستحقـا لراتب القضاء إذا لم يحضر حتى لو كـان معذورا بالمرض، وفي ذلك يقول غنام بن حفص: مرض أبي خمـسة عشر يوما فدفع إلي مائة درهم وقـال: امض بها إلى العامل وقل له: هذه رزق خـمسة عشـر يوما لم أحكم فيها بين المسلمين لاحظ لي فيها[3].

وهذان مثالان جليـلان في الورع والعفة ومحاسـبة النفس، وهذا يدل على قوة إيمان القاضي حفص بن غياث وغزارة علمه رحمه الله تعالى.

ولقد ظل حفص بن غـياث في القضاء عدة سنوات كان فيـها قرير العين لما يتم على يديه كل يوم من إحـقاق الحق وإبطال البـاطل، يدل على ذلك مـا ذكره ابن خلكان من خـبر ابنه عمـرو بن حفص قـال: لما حضـرتْ أبي الوفاة أغمـي عليه فبكيت عند رأسه، فـأفاق فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لفـراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر، يعني القـضاء، فقال لابنه: يا بني ما حللـت سراويلي على حرام قط، ولا جلس بين يدي خصمان فباليت على من توجه الحكم بينهما[4].

فهو يـحمد الله تعالى على نزاهتـه وعفته وسـلامته من الفتن التي يتعـرض لها بعض القضاة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

***

(١) يعني الجهة الشرقية من بغداد وكان قد تولى قضاءها.
(٢) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٨.
(٣) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٨.
(٤) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٨.

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله

قال الحافظ ابن كثير: جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها، فتناظرا ساعة، فجعل صوتها يعلو صوته، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون: اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم[1].

فهذا مثل من عدل الولاة حتى مع الأقارب الأدنين، وقد تمثل عدل أمير المؤمنين عبدالله المأمون في إجلاس ابنه العباس مع تلك المرأة التي خاصمته، وتوحيد المجلس بين الخصوم مظهر من مظاهر العدل، كما ظهر عدله فى إتاحة الفرصة لتلك المرأة في إبداء ظُلامتها مع ارتفاع صوتها، ثم في حكمه لها على ابنه، والعدل من أهم أسباب استقرار الحكم، لأن الحاكم يكسب بالعدل قلوب الرعية.

***

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠.

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد رحمه الله[1]

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير قال: وقد أورد ابن الجوزي بإسناده أن المعتضد اجتاز في بعض أسفاره بقرية فيها مقثاة، فوقف صاحبها صائحا مستصرخا بالخليفة، فاستدعى به فسأله عن أمره فقال: إن بعض الجيش أخذوا لي شيئا من القثاء وهم من غلمانك، فقال: أتعرفهم؟ فقال: نعم، فعرضهم عليه فعرف منهم ثلاثة، فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم، فلما كان الصباح نظر الناس ثلاثة أنفس مصلوبين على جادة الطريق، فاستعظم الناس ذلك واستنكروه وعابوا ذلك على الخليفة، وقالوا: قتل ثلاثة بسبب قثاء أخذوه!! فلما كان بعد قليل أمر الخوَّاص - وهو مسامره- أن ينكر عليه ذلك ويتلطف في مخاطبته في ذلك والأمراء حضور، فدخل عليه وقد عزم على ذلك، ففهم الخليفة ما في نفسه من كلام يريد أن يبديه، فقال له: إني أعرف أن في نفسك كلاما فما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين وأنا آمن؟ قال: نعم، قال له: فإن الناس ينكرون عليك تسرعك في سفك الدماء، فقال: والله ما سفكت دما حراما منذ وليت الخلافة إلا بحقه، فقال له: فعلام قتلت أحمد بن الطيب وقد كان خادمك ولم يظهر له خيانة؟ فقال: ويحك إنه دعاني إلى الإلحاد والكفر بالله فيما بيني وبينه، فلما دعاني إلى ذلك قلت له: يا هذا أنا ابن عم صاحب الشريعة، وأنا منتصب فى منصبه فأكفر حتى أكون في غير قبيلته!! فقتلته على الكفر والزندقة.

فقال له: فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء؟ فقال: والله ما كان هؤلاء الذين أخذوا القثاء، وإنما كانوا لصوصًا قد قتلوا وأخذوا المال فوجب قتلهم، فبعثت فجئت بهم من السجن فقتلتهم وأريت الناس أنهم الذين أخذوا القثاء، وأردت بذلك أن أرهب الجيش لئلا يفسدوا في الأرض ويعتدوا على الناس ويكفُّوا عن الأذى.

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن محمد المعتضد بالله العباسى.

ثم أمر بإخراج أولئك الذين أخذوا القثاء فأطلقهم بعدما استتابهم وخلع عليهم وردهم إلى أرزاقهم[1].

فهذا موقف يذكر لأمير المؤمنين المعتضد وذلك في الحزم والحكمة والعدالة، فعلى الرغم من صغر هذا الموضوع فإنه أثار اهتمامه وجعله يفكر في طريقة يرهب بها الجنود ويكفهم عن الاعتداء على الناس، فتذكَّر اللصوص الذين قتلوا فأحضرهم وقتلهم وأوهم أنه قتل أصحاب تلك الجريمة الخفيفة ليرتدع جميع الجنود، بينما قدَّم للقتل ثلاثة قد وجب عليهم حد القتل شرعا، وهذه سياسة حكيمة في ردع أصحاب الجرائم، وذلك يدل على رغبة المعتضد في أن يسود الأمن في المجتمع مع حرصه على عدم ارتكاب الظلم، وإذا كان الوالي حريصًا على سيادة الأمن والقضاء على الجرائم فإنه يُسدَّد للمنهج الأفضل في ذلك.

وفي هذا الخبر دلالة على تغلغل الملحدين في الدول الإسلامية حيث وصل ذلك الملحد إلى مرتبة عالية عند الخليفة المعتضد، ثم تجرأ على دعوته إلى الإلحاد، ولو نجح في ذلك لأحدث فتنة كبرى فى العالم الإسلامي، وكون ذلك الملحد وصل إلى تلك المنزلة دليل على نقص الوعي الديني عند أهل العلم، إذ كان يجب عليهم أن يعرفوا الملحدين وأن يتابعوهم وأن يحذِّروا الولاة منهم حتى لا يصلوا إلى مناصب قيادته فيفسدوا في الأرض.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال: ورَوى ابن الجوزي عن بعض خدم المعتضد قال: كان المعتضد يوما نائما وقت القائلة، ونحن حول سريره، فاستيقظ مذعورًا ثم صرخ بنا فجئنا إليه، فقال: ويْحَكم اذهبوا إلى دجلة فأول سفينة تجدونها فارغة منحدرة فأتوني بملاحها واحتفظوا بالسفينة، فذهبنا سراعا فوجدنا ملاحا في سَيْمرية[2] فارغة منحدرا، فأتينا به الخليفة، فلما رأى الملاح الخليفة كاد أن يتلف، فصاح به الخليفة صيحة عظيمة، فكادت روح الملاح تخرج، فقال له الخليفة: ويحك اصدقني عن قصتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك.

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٢ - ٩٣.

(٢) هي السفينة الصغيرة.

قال: فتلعثم ثم قال: نَعمْ يا أمير المؤمنين، كنت اليوم سحَرًا في مَشْرَعتي الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها وعليها ثياب فاخرة، وحليّ كثير وجوهر، فطمعت فيها، واحتلت عليها فشددت فاها وغرَّقتها وأخذْت جميع ما كان عليها من الحلي والقماش، وخشيت أن أرجع به إلى منزلي فيشتهر خبرها، فأردت الذهاب به إلى واسط، فلَقيني هؤلاء الخدم فأخذوني.

فقال: وأين حليُّها؟ فقال: في صدر السفينة تحت البواري[1]، فأمر الخليفة عند ذلك بإحضار الحلي فجيء به فإذا حلي كثير يساوي أموالا كثيرة.

فأمرالخليفة بتغريق الملاح في المكان الذي غرَّق فيه المرأة، وأمر أن ينادَى على أهل المرأة ليحضروا حتى يستلموا مال المرأة، فنادى بذلك ثلاثة أيام في أسواق بغداد وأزقتها، فحضروا بعد ثلاثة أيام، فدفع إليهم ما كان من الحلي وغيره مما كان للمرأة، ولم يذهب منه شيء.

فقال له خدمه: يا أمير المؤمنين من أين علمت هذا؟ قال: رأيت في نومي تلك الساعة شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي: يا أحمد يا أحمد، خذ أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه، وقرِّرْه عن خبر المرأة التي قتلها اليوم وسلَبها، فأقم عليه الحد، وكان ما شاهدتم[2].

وهكذا نبَّه الله تعالى الخليفة المعتضد بذلك الشيخ الجليل الذي رآه في المنام، وذلك من فضل الله جل وعلا عليه حتى لا يقع تحت إمارته ظلم من غير أن يعلم، إذ أن جرأة ذلك الملاح على قتل تلك المرأة وسلبها من مظاهر نقص الأمن وضعف الحراسة، فأنقذ الله تعالى المعتضد من مسؤولية ضياع تلك المرأة بتلك الرؤيا الصالحة، لأنه كان حريصًا على العدل وإنقاذ المظلومين، فنبهه الله لتلك المظلمة من باب الجزاء بالحسنى على العمل الصالح.

وهذا ما يدخل في قول رسول الله ﷺ «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[3] إذ أن قيام ذلك الحاكم بالعدل فيما يعلم من الأمور كان سببا في توفيقه إلى علم ما لم يعلم من ذلك ليبرئ ساحته من وجود الظلم تحت مسؤوليته.

(١) هي الحصر من القصب.
(٢) البداية والنهاية ١١/ ٩٤.
(٣) مسند أحمد ١/ ٣٠٧.

ومن أخباره في الشهامة والعدل ما ذكـره الحافظ ابن كثير من خبر القاضي أبي الحسن مـحمد بن عبـدالواحد الهاشمي عـن شيخ من التجار قـال: كان لي على بعض الأمراء مال كثـير فماطَلَني ومنعني حقي، وجعل كلما جـئت أطالبه حجبني عنه، ويأمر غلمانه يؤذونني، فاشتكيت عليـه إلى الوزير فلم يُفِد ذلك شيئًا، وإلى أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعـوا منه شيئا، وما زاده إلا منعًا وجـحودًا، فأيستُ من المال الذي عليـه ودخلني همٌّ من جهتـه، فبـينما أنا كذلك وأنـا حائر إلى من أشتكي، إذ قـال لي رجل ألا تأتي فلانا الخـياط -إمام مـسجد هناك- فـقلت وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم. وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟ فقال لي: هو أقطع وأخوف عنده من جـميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليـه لعلك أن تجد عنده فرجًا. قال فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي وما لقيت من هذا الظالم، فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه وأحترمه وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملا من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذَّنت . فتغير لون الأمير ودفع إليَّ حقي.

قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع[1] ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئًا من المال فلم يقبل مني شيئًا، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الأموال مالا يحصى. فسألتـه عن خبره وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه فـقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جـوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شـاب حسن، فمـر به ذات يوم امرأة حسناء قـد خرجت من الحمام وعليهـا ثياب مرتفعة ذات قيـمة، فقام إليها وهو سكران فـتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليـه وتصيح بأعلى صوتها: يا مسلمون أنا امـرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدنـي على نفـسي ويدخلني مـنزله، وقـد حلف زوجي بالطلاق أن لا أبيت في غـير منزله، ومـتى بت ها هنا طلقت منه ولحـقني بسبب ذلك عار لا تدحضه الأيام ولا تغسله المدامع.

قال الخيـاط: فقمت إليـه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فـضربني بدبوس في يده فـشج رأسي، وغلب المرأة على نـفسـهـا وأدخلها منـزله قهـرًا،

(١) انطاع: انصاع واستمع.

فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي وصليت بالناس العشاء ثم قلت للجماعة: إن هذا قد فعل ما قد علمتم فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلّص المرأة منه، فقام الناس معي فهجمنا عليه داره فثار إلينا في جماعة من غلمانه بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس، وقصدني هو من بينهم فضربني ضربًا شديدًا مبرحًا حتى أدماني، وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة.

قال: فرجعت إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت على فراشي فلم يأخذني نوم، وتحيَّرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها حتى لا يقع على زوجها الطلاق، فأُلهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح، فبينما أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالة وهم يقولون: أين الذى أذن هذه الساعة؟ فقلت: ها أنا ذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا: انزل، فنزلت فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئًا، حتى أدخلوني عليه، فلما رأيته جالسًا في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعًا شديدًا، فقال: ادْنُ، فدنوت فقال لي: ليسكنْ رَوعك وليهدأ قلبك. وما زال يلاطفني حتى اطمأننت وذهب خوفي، فقال: أنت الذي أذنت هذه الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: ما حملك على أن أذنت هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه؟ فتغرّ بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم. فقلت: يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري؟ فقال: أنت آمن. فذكرت له القصة.

قال: فغضب غضبًا شديدًا وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا، فأُحضرا سريعا، فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقات ومعهن ثقة من جهته أيضا، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان

إليها، فإنهـا مكرهة ومعذورة. ثم أقبل على ذلك الشاب الأمـير فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجوار والزوجات؟ فـذكر له شيئًا كثيـرًا. فقال له: ويحك أما كـفاك ما أنعم الله به عليك حتى انتـهكت حرمة الله وتعديت حـدوده وتجرأت على السلطان، وما كـفاك ذلك أيضًا حتى عـمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته؟ فلم يكن له جواب. فأمر به فجعل فى رجله قيـدٌ وفي عنقه غل ثم أمر به فأدخل في جوالق[1] ثم أمر به فضـرب بالدبابيس ضربًا شديدًا حـتى خفت، ثم أمر به فـألقي في دجلة فكان ذلك آخر العهـد به. ثم أمر بَدْرًا صاحب الشرطة أن يحـتاط على ما في داره من الحواصل والأمـوال التي كان يتناولها من بيت المال، ثم قـال لذلك الرجل الصالح الخياط: كلما رأيت منكرًا صغيرًا كـان أو كبيرًا ولو على هذا -وأشار إلى صاحب الشرطة -فأعلمني- فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلى ما بيني وبينك الأذان، فأذِّنْ في أى وقت كان ولو في مثل وقتك هذا.

قال: فـلهذا لا آمـر أحدًا من هؤلاء الدولة بشيء إلا امـتثلوه، ولاأنهـاهم عن شيء إلا تركوه خوفًا من المعتضد. ومـا احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن[2].

في هذا الخبر موقفان عاليان:

أولهما: موقف ذلك الخياط الصالح الذي أبى عليه إيمانه القوي وشهامته العالية أن يترك أخته في الإسلام فريسة لذلك الوحش الغـادر، فأنكر عليه اعتداءه عليها وتلقى منه الإهانـة والضرب بـالحديد، ولمـا لم يسـتطع ردع ذلك الظالم بمفـرده استعان عليـه بمن ناصره من جماعة المسجد، فلمـا لم يستطع لامتناع ذلك الظالم بغلمانه لم ييأس من إنقاذ تلك الفتاة المظلومة ولم تهدأ نفسه ولم يغمض له جفن حتى ابـتكر تلك الحيلة الناجـحة، فـأذن في جوف الليل ليـوهم ذلك الظالم بأن الفجر قد طلع.

---

(١) الجوالق كيس كبير من الصوف.

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٩٥-٩٧.

وهكذا يصل المتقون السابقون بالخيـرات إلى تعريض أنفسهم للأذى والهلاك في سبيل إنقاذ إخوانهم المسلمين من الظلم والعار.

إنهم ينظرون إلى كل أخت مسلمـة على أنها بمنزلة أمهم أو أختـهم أو إبنتهم، فيحبُّون لإخوانهم وأخواتهم ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون لهم ما يكرهون لها.

والموقف الثانى: موقف ذلك الحاكم العـادل الحازم أمير المؤمنين المعـتضد بالله، الذي تنبَّه لذلك الأذان الذي انطلق في جوف الليل، مما يدل على يقظتـه واهتمامه بأمور رعيته، ثم اهتمامهُ بالقضاء على ذلك المنكر بصرامة وشدة، ليكون في ذلك ردع للظالمين المتجبرين.

***

من مواقف القاضي يوسف بن يعقوب رحمه الله

ذكر الحافظ ابن كـثير في ترجمـة القاضي يوسف بن يعقوب بن إسـماعيل بن حماد بن يزيد قـال: ولي قضاء البصرة وواسط والجانب الشـرقي في بغداد، وكان عفيفا شديد الحرمة نَزِها، جاءه يومًـا بعض خدم الخليفة المعتضد فترفع في المجلس على خصمه، فـأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمـه فامتنع إدلالاً بجاهه عند الخليفـة، فزبره القاضي وقـال: ائتوني بدلاّل النخس حتى أبيع هذا العـبد وأبعث بثمنه إلى الخليـفة، وجاء حاجب القـاضي فأخذ بيـده وأجلسه مع خصمـه، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد فـبكى بين يديه فقال له: مالك؟ فأخبره بالخـبـر وما أراد القـاضي من بيـعـه، فـقال: والله لو بـاعك لأجزت بيـعـه ولما استرجعتك أبدا، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الشرع، فإنه عمود السلطان وقوام الأديان[1].

فهذا مثل من عدل القضاة في الإسـلام وعدم محاباتهم أصحاب الجاه والمنزلة، ولقد كان هذا القاضي العادل يوسف بن يعقوب شديداً على ذلك الخادم الذي أراد أن يهين الدين بعدم استسلامه للقاضي، وترفعـه عن مساواة خصمه، ولقد أثر فيه هذا الموقف القوي حـتى أبكاه أمام الخليـفة، ولكنه كان أمـام خليفـة تقي عادل، حيث وبخـه على ما كـان منه من الترفع والإدلال بصـلته به، وهذا موقـف يذكر لأمير المؤمنين المعتضد مع مواقفه السابقة في العدل وتعظيم حرمات الدين.

***

(١) البداية والنهاية ١١/ ١١٩.

موقف للأمير أبي النجم بدر بن حسنويه الكردي رحمه الله

قال عنه الحافظ ابن كثير: كان من خيار الملوك بناحية الدينور وهمدان: وله سياسة وصدقة كثيرة، كنّاه القادر بأبي النجم، ولقَّبه ناصر الدولة، وعقد له لواء وأنفذه إليه، وكانت معاملاته وبلاده في غاية الأمن والطيبة، بحيث إذا أعيى جمل أحد من المسافرين أو دابته عن حمله يتركها بما عليها في البرية فيرد عليه ولو بعد حين لا ينقص منه شيء، ولما عاثت أمراؤه في الأرض فسادًا عمل لهم ضيافة حسنة، فقدمها إليهم ولم يأتهم بخبز، فجلسوا ينتظرون الخبز، فلما استبطؤوه سألوا عنه فقال لهم: إذا كنتم تهلكون الحرث وتظلمون الزراع، فمن أين تؤتون بخبز؟ ثم قال لهم: لا أسمع بأحد أفسد في أرض بعد اليوم إلا أرقت دمه.

واجتاز مرة في بعض أسفاره برجل قد حمل حزمة حطب وهو يبكي فقال له: مالك تبكي؟ فقال: إني كان معي رغيفان أريد أن أتقوتهما فأخذهما مني بعض الجند، فقال: أتعرفه إذا رأيته؟ قال: نعم. فوقف به في موضع مضيق حتى مر عليه ذلك الرجل الذي أخذ رغيفيه، قال: هذا هو، فأمر به أن ينزل عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه، حتى تأدب به الجيش كلهم[1].

فهذا مثل جليل فى العدل، ولمسة حانية وعطف رحيم من هذا الأمير لذلك العامل البسيط.

إن منظر المظلومين الضعفاء وهم يبكون يثير شهامة الكرماء، ويبعث أصحاب النفوس السوية على الرحمة بهم والعطف عليهم وبذل الجهد في إنصافهم.

ومن هذا المنطلق كان هذا الموقف الكريم من هذا الأمير الذي سلك سلوكا عاليا أنصف به المظلوم وردع به الظالم، وبهذا الحكم العادل تستقيم أمور الأمة ويصلح المجتمع.

***

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٧٧ - ٣٧٨.

من مواقف الأمير هشام بن عبدالرحمن الأموي

هو أحد أمـراء الأندلس، ومن أمثلة عـدله ورغبتـه في الإصلاح مـا ذكره ابن عذاري في ترجمته قال: وكان هشام يبعث إلى الكُوَر[1] قومًا عدولاً يسألون الناس عن سير العمال، ثم ينصرفون إليه بما عندهم، فيقع نظره بهدم ما تكشفه المحنة له منهم، واعترض له يوما متظلمٌ من أحد عماله، فبدر إلى الشاكى من رجال العامل من ترخَّاه شفقة منه على العامل، فـبعث إلى الشاكي وقال له: احلف على كل ما ظلمك فيه، فإن كان ضربك، فاضربه، أو هتك لك سترًا، فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً، فـخذ من مـاله مثله، إلا أن يكـون أصاب منك حـدّا من حدود الله، فجـعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أُقيـد منه، فكان زجره هكذا لعـماله أبلغَ فيهم من النكال والأدب، وكان كريما عادلاً فاضـلاً متواضعا عاقلاً، لم تُعرف منه هفوةٌ في حداثته، ولازلةٌ في أيام صباه. ومن كرمه أنه كان يَصُرُّ أموالاً في صُرر، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقـد المسجد، فإذا وجد واحدًا يصلي في مسجد أو لا يصلي وضع بين يديه صرةً، حتى كثرت عمارة المساجد.

وكان -رحمه الله!- قد نظر في بنيان قنطرة قُرْطُبة، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة. وتـولى بناءها بنفسه، وتُعطى الأجرة بين يديه. قـال ابن وضاح: لما بنى هشام القنطرة، تكلم بعض الناس فـيه، وقالوا: إنما بناها لتصيُّـده ونُزهته! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة.

قال القـاضي أبو معـاوية: أدركتُ صدرًا من الناس يحكون أن أيـام هشام هذا كانت من الدَّعة والعافـية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثـلٌ. وكان يحضر الجنائز، ويزاحم فيها، كأنه أحدٌ من الناس تواضعًا.

وكان لبـعض رجال هشام خـصومةٌ في دار عند القـاضي مُصعب بن عـمران، فسجـل عليه القاضي فيـه وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشـام، وقال له: إن

---

(١) يعني الأقاليم.

القاضي سجَّل عليَّ في داري التي كنت أسكنها، وأخـرجنى عنها! فقال له هشام: وماذا تُـريد مني؟ والله لو سجَّل عليَّ القـاضي في مقـعدي هذا، لخـرجت عنه! انقيادًا منه للحق، رحمة الله عليه[1].

فهذه أمثلة من اهتمام الأمير هشـام بن عبدالرحمن بالدعوة والإصلاح والعدل، وإذا إقترنت هذه الاهتمامات مع الاهتمـام بالجهاد كان في ذلك ضمان لقوة الدولة الإسلامية وبقائها.

***

(١) البيان المغرب ٢/ ٦٦.

من مواقف الأمير الحَكَم بن هشام الأموي والقاضي محمد بن بشير

الحَكَمُ بن هشام هو أحد أمراء الأندلس ومن أخبار اهتمامه بالعدل ما ذكره ابن عذاري في ترجمته قال: كان الحكم -رحمه الله- شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تُتَّقَى. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته، وكان مبسوط اليد، وكان له قاض كفاه بورعه وعلمه وزهده، فمرض مرضا شديدًا، فاغتم الحَكَم لمرضه، فذكر بعضُ خاصته أنه أرق ليلةً أرقًا شديدًا، وجعل يتململ على فراشه، فقيل له: أصلح الله الأمير! ما الذي عرض؟ فقال: ويْحَكُم! إني سمعت في هذه الليلة نادبةً، وقاضينا مريضٌ، وما أُراه إلا وقد قضى نحبه، فأين لي بمثله، ومن يقوم بالرعية مقامه؟ فمات القاضي في تلك الليلة وهو المُصعب بن عمران قاضي أبيه. فولَّى بعده محمد بن بشير.

فكان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنفذهم بحكم، ورَفع إليه رجل من أهل كورة «جيان» أنَّ عاملا للحَكَم اغتصبه جاريةً، وصيرها إلى الحَكَم، فوقعت في قلب الحكم كل موقع، فأثبت الرجل أمره عند القاضي، وأتاه ببينة تشهد على معرفة ما تظلَّم منه وبمُلكه للجارية وبمعرفتهم بها، فأوجبت السُّنَّةُ أن تحضر الجارية، فاستأذن القاضي على الحَكَم، فأذن له، فلما دخل عليه، قال له: أيها الأمير! إنه لا يتم عدلٌ في العامة دون إقامته في الخاصة! وحكى له أمرَ الجارية، وخيَّره بين إبرازها للبينة ليشهد على عينها أو عزله، فقال له الحكم: أوَلا أدعوك إلى خير من ذلك! تبتاع الجارية من صاحبها بأبلغ ما يطلب فيها. فقال القاضي: إنَّ الشهود قد شهدوا من كورة جيان، وأتى الرجل يطلب الحق في مظانِّه، فلما صار ببابك، تصرفُه دون إنفاذ الحق له، ولعل قائلاً يقول: باع مالا يملك بيع مقهور، فلما رأى عزمه على ذلك، أمر بإخراج الجارية من قصره، فشهد الشهودُ عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها.

قال: وكان هذا القاضي محمدُ بن بشير، إذا خرج للمسجد، وجلس للأحكام، جلس في رداءٍ معُصْفَر، وشعر مفرَّق، فإذا طُلب ما عنده وُجِد أفضلَ الناس وأورعهم.

وكان الحكم يقول: ما تحلَّى الخلفاءُ بمثل العدل[1]!.

وهكذا يضرب الحَكَم بن هشام مثالا من أروع الأمثلة على الاهتمام بتعيين القضاة الأكفاء ويخضع لتطبيق الحق حينما يتوجه عليه، ويشيد بالخلفاء الذين يتحلون بالعدل، وهذه أفعال وأقوال حميدة، وخاصة حينما تصدر ممن هم في أعلى قمة من المسؤولية في بلادهم، وهي إلى جانب كونها من المُثل العالية التي تربَّى عليها هؤلاء الأمراء في ظل تطبيق الإسلام فإنها من التجارب السياسية التي توارثها الساسة وعرفوا أن بها صلاح الدول والشعوب.

وفي هذا الخبر موقف جليل للقاضي محمد بن بشير حيث أصر على الحكم بالعدل وإنفاذ الحق حتى على الحاكم، وهو موقف يضاف إلى مواقف القضاة العالية التي أقروا فيها العدالة وحفظوا للأمة الإسلامية أمنها وقوتها.

***

(١) البيان المغرب ٢/ ٧٨ - ٧٩.

من مواقف الأمير المنصور محمد بن أبي عامر

هو أحد أمراء الأندلس وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري نبذة من إصلاحات ابن أبي عامر ومن ذلك: بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم. ابتدأ المنصور بنيانها سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة، وصارت صدرًا في مناقبه الجليلة. وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنها، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها، فحضر الشيخ عندهم، وأخذ حذره منهم، فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها. فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه: أن لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبًا، كانت عنده أقصى الأمنية، وشرطها صحاحًا، فاغتنم الأمناء غفلته، ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جهالته، وأنف في غبنه، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، وتدفع له صحاحًا كما قال. فقبض الشيخ مائة دينار ذهبًا، فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجنَّ عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلاً في شكر المنصور، وصارت قصته خبرًا سائرًا.

ومن ذلك أيضًا: بنيان قنطرة على نهر إستجة، وهو نهر شنيل، فتجشم لها أعظم مؤنة، وسهَّل الطُّرق الوعرة والشعاب الصعبة[1].

فهذان مثلان من الإصلاحات العامة التي قام بها، ومما يلفت النظر في الخبر الأول رحمته بذلك الشيخ وتورعه عن غبنه، فهو لم يغتنم فرصة جهله بالأسعار كما فعل أصحابه، بل أعطاه حقه وأضعاف ذلك، فهذا يدل على تنزهه من الظلم وإن كان ذلك غير معلوم لمن سيقع عليه.

قال: ومن ذلك أنه خط بيده مصحفًا كان يحمله معه في أسفاره، يدس فيه ويتبرك به.

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨.

ومن قوة رجائه أنه أعـتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبـار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صُرةٌ ضخمة عَـهد بتصييره في حنوطه عند موته، وكان يـحمله حيث ما سار مع أكفـانه، توقعًا لحـلول منيته، وقـد كان اتخذ الأكـفان من أطيب مكسـبه من الضيـعة الموروثة عن أبيه وغزل بناتـه، وكان يسأل الله تعالى أن يتـوفاه في طريق الجهاد، فكان كذلك[1].

وهذان الخبران يدلان على قوة دينـه وعمق استحضاره للحيـاة الآخرة وتعظيمه لكتاب الله تعالى والجهاد في سبيله.

قال: وكان عـدل المنصور في الخاصة والعامـة. واطِّراحُه المهاودة، وبسطُه الحقَّ على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمرًا مضروبًا به المثل.

ومن عدله أنه وقف عليه رجلٌ من العامـة يومًا بمجلسه فناداه: يا ناصر الحق إن لي مظلمةً عند ذلك الوصيف الذي على رأسك! وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة. وكان له فـضلُ محلٍّ عند ابن أبي عـامر، ثم قـال: وقد دعوته إلى الحـاكم، فلم يأت! فقال المنصور: أوَعبد الرحـمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضـى من ذلك؟ اذكر مظلمتك يـا هذا! فذكر الرجل مـعاملةً كـانت جارية بينهما قطعها من غير نَصَف، فقـال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية! ثم نظر إلى الصّقْلَبى، وهو قد ذهل عقله، فقـال: ادفع الدرقة إلى فلان، وانزل صاغرًا، وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحقُّ أو يضعك! ففعل، ومثُل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطتـه الخاص به: خُذ بيد هذا الظالم الفاسق، وقدمـه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفـذ عليه حكمه بأغلظ مـا يوجبه الحق من سجن أو غـيره! ففعل ذلك، وعاد الرجل إليـه شاكرًا، فقال له المنصور: قـد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك، وبقى انتصافي أنـا ممن تهاون بمنزلتي. فتناول الصقلبيَّ بأنواع من المذلة، وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك، قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقيِّ مع التاجر المغربي، فإنهما تنازعا في خصـومة توجـهت فيهـا اليمين على الفـتى المذكور، وهو يومـئذ أكبـر خدم

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨.

المنصور، وإليه أمـر داره وحرمه، فدافع الحاكم، وظن أن جـاهه يمنع من إحلافه، فصـرخ التاجـر بالمنصور في طريقـه إلى الجامع متـظلمًا من الفتى، فـوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم، فـأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقـبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك، قصة محمد، فصَّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يومًا إلى الفصـد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسـوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوسًا في سجن القـاضي محمد بن زرب، لِحَيْف ظهر منه على امرأته، قَدَّر أن سبيله من الخدمة يحميه من العـقوبة. فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخـراجه من السـجن مع رقيب من رقـباء السـجن، يلزمه إلى أن يـفرغ عن عمله، ثم يعـيده إلى محبـسه، ففعـل ذلك على ما رسمه، وذهب الفـاصد إلى شكوى ما ناله، فـقطع عليه المنصور، وقـال له: يا محمـد، إنه القاضي وهو في عدله، ولو أخذني الحقُّ ما أطقتُ الامتناع منه! عُـدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق هو الذي يطلقك. فانكسر الحاجم، وزال عنه ريحُ العناية. وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجه، وزاد القاضي شدةً في أحكامه[1].

فهذه الأخـبار الثلاثة تدل على عدله وإنصافـه أهل الحق من ظالميهم وإن كانوا من المقـربين إليه، وفي الخـبر الأول نراه يُنحـي باللائمة على ذلك القـاضي الذي عجـز عن استقدام المدَّعَى عليـه لكونه من المقربين للمنصور، فـهو يرى بذلك أن القاضى يجب عليـه أن يكون قويا وأن لا تأخذه في الحق لومـة لائم وأن لا يفرق في الخصومة بين كبير أو صغـير، ثم إنه بعد أن أخذ المظلومُ حقَّه نراه يعاقب ذلك الفتى الظالم عقوبة خـاصة لكونه استغل قربه منه فامـتنع من الحضور إلى مجلس القضاء.

قال: ومن ذلك قصة الجوهري التاجر، وذلك أن رجلا جوهريًا من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصورُ من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى الجوهري التاجر صُـرته، وكانت قطعة يمانية. فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرَّملة على شط النهر، فلما توسطها واليومُ قائظٌ وعرقُه مُنْصبٌّ

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠.

دعتـه نفسه إلى التـبرد في النهر، فـوضع ثيابه وتلك الصُّرة على الشط، فـمرت حدأةٌ، فاختطفت الصرة تحسبهـا لحمًا وصاعدت في الأفق بها ذاهبة فقطعت الأفق الذي تنظر إليـه عين التاجر، فـقامت قـيامتـه وعلم أنه لا يقدر أن يسـتدفع ذلك بدعوى ولا بحيلة، فأسرَّ الحزن في نفسـه، ولحقَتْه لأجل ذلك علةٌ اضطرب فيها. وحضر الدفع إلى التجار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان له ما به من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشـدة العارضة. فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصـته، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمـر؟ فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هَديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟ قال: مرَّ مُشرِّقًا على سَمْت هذه الجنان الذي يلي قصرك يعني الرملة، فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له: جئني بمشيـخة أهل الرملة الساعة، فمـضى، وجاء بهم سريعًا، فـأمرهم بالبحث عمَّن غيَّر حال الإقلال منهم سريعًا، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا! مـا نعلم إلا رجلاً من ضعفـائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السَّقي بأقدامهم عجزًا عن شراء دابة، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة. فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعـينه بين يدي المنصور، فاستدناه والتاجر حـاضرٌ، وقال له: سببٌ ضاع منا وسـقط إليك ما فـعلت به؟ فقـال: هو ذا يا مولاي؟ وضـرب بيده إلى حجزة سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فـصاح التاجر طربًا وكاد يطير فرحًا، فقال له المنصور: صف لي حديثهـا. قال: نعم! بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة، إذ سقطت أمامي، فـأحذتها، وراقني منظرها، فقلت إن الطائر اختلسـها من قصرك لقرب الجوار، فاحـترزت بها، ودعتني فاقتـي إلى أخذ عشرة مثاقيل عُـيُونًا كانت معها مـصرورة، وقلت: أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لـي بها. فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خُذ صرتك، وانظرها، واصدقني عن عددها. ففـعل وقـال: وحق رأسك، يا مولاي، مـا ضاع منهـا شيء سوى الدنانيـر التي ذكرها، وقـد وهبتـها له. فـقال له المنصـور: نحن أولى بذلك منك، ولا ننقص عليك فرحتك. ولولا جمعه بين الإقـرار والإنكار لكان ثوابه موفورًا عليه. ثم أمر للتاجر بعشـرة دنانير عوضًا من دنانيره وللجنَّان بعشرة دنانير ثوابا لـتأنيه عن إفساد

ما وقع بيده، وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناه جزاءً! قال: فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبثنَّ في الأقطار عظيم ملكك، ولأبينن أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك، فضحك المنصور، وقال: اقصد في قولك يغفر الله لك، فعجب الناس من تلطف المنصور، في أمره، وحيلته في تفريج كربته[1].

فهذا مثال على دهاء المنصور ابن أبى عامر ودقة ملاحظته، وهذا التفوق في النظر في القضايا والبحث الدقيق في خفاياها وملابساتها إنما هو بالدرجة الأولى توفيق من الله تعالى لمن حملوا في أفكارهم هموم الأمة وأصبح إحقاق الحق وإبطال الباطل مطلبهم الكبير، فالذهن في هذه الحال يتفتق عن أنواع من مجالات الحلول التي يصل بها صاحبها إلى حل القضايا المشكلة ومعرفة الأمور المغيبة.

***

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٢.

موقف للسلطان العزيز عثمان الأيوبي

ذكر المؤرخ الحافظ الذهبي أن عبد الكريم ابن البيساني أخا القاضي الفاضل كان يتولى البحيرة في مصر مدة، وأنه حصَّل مالاً كثيرًا، ووقع بينه وبين أخيه شيء فعُزل، وكان مزوَّجا ببنت ابن ميسَّر فأساء عشرتها لسوء خلقه، فتوجه أبوها وأثبت عند قاضي الإسكندرية ضررها وأنه قد حصرها في بيت، فمضى القاضي بنفسه ورام أن يفتح عنها فلم يقدر، فأحضر نقابًا فنقب البيت وأخرجها ثم سد النقب، فهاج عبد الكريم وقصد الأمير جهاركس بمصر وقال: هذه خمسة آلاف دينار لك وأربعون ألف دينار للسلطان وأُوَلَّى قضاء الإسكندرية، فأتى هذا الأمير السلطان العزيز ليلاً وأحضر الذهب، فسكت ثم قال: ردَّ عليه ماله وقل له: إياك أن تعود إلى مثلها فما كل ملك يكون عادلاً، أنا ما أبيع أهل الإسكندرية بهذا المال[1].

فهذا الخبر يشتمل على موقفين كريمين في العدل:

أولهما: موقف قاضي الإسكندرية آنذاك، حيث حكم ضد رجل قد تولى قبل ذلك على قطاع كبير في مصر وصارت له شهرة، وذهب بنفسه وأنقذ تلك المرأة من ظلم ذلك الرجل بطريقة قوية قد تعرضه لمشكلات مع ذلك الرجل ومن يناصره.

والموقف الثاني: موقف السلطان العزيز عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وذلك حينما عرض عليه الأمير جهاركس تلك الرشوة الكبيرة ليولي عبد الكريم البيساني قضاء الإسكندرية، فرفض السلطان العزيز ذلك العرض بشدة، وهو في ذلك قد وازن بين مصلحة فَرْدٍ ومصلحة أهل الإسكندرية بأجمعهم ففضل رعاية مصلحة أهل الإسكندرية، وهو يعلم أن ذلك الرجل استعدَّ بدفع

(١) سيرة أعلام النبلاء ٢١/ ٢٩٤.

تلك الرشــوة الكبيرة ليــصل إلى منصب القــضاء وهو لا يصلح لذلك لأنه جــبار ظالم، وإذا كان قد ظلم زوجته التي هي من أقرب الناس إليه فكيف به في معاملة الناس؟! وخاصــة من كان بينه وبينهم خلاف ونزاع، فمن أجل حــماية أهل ذلك البلد من الظلم رفض هذا السلطان تعيين ذلك الجبار قاضيًا.

وهكذا يضرب الســلطان العزيز مثــلاً عاليًا في الــعدل والرحمــة، ويحول دون وصول المفسدين في الأرض إلى مقام الولاية على المسلمين.

***

من مواقف الأمير قسيم الدولة رحمه الله[1]

قال ابن الأثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظًا لهم، وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أُخذ عند أحدهم قَفَلٌ أو أحدٌ من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة[2] إذا بلغتْ قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا، فأمنت الطرق وتحدث الركبان بحسن سيرته[3].

فهذه سياسة حكيمة من هذا الأمير العادل الحازم تدل على رغبة صادقة في العدل وإقرار الأمن، فهو بهذه الخطة قد حول جميع أهل القرى في إمارته إلى جنود يحرسون المسافرين ويقرون الأمن فأصبح الناس يأمنون على أنفسهم وأموالهم وينامون وهم مطمئنون.

***

(١) هو الأمير قسيم الدولة آق سنقر أمير مدينة حلب، وهو والد السلطان عماد الدين زنكي وجَدُّ السلطان العادل نور الدين زنكي، توفي سنة (٤٨٧هـ).

(٢) أي المسافرون.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمؤرخ أبي شامة المقدسي ١/ ١٠٢.

من مواقف السلطان عماد الدين زنكي رحمه الله[1]

قال ابن الأثير: حدثني والدي قال: قدم الشهيد أتابك زنكي إلينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين، وكان زمن الشتاء، فنزل بالقلعة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جُمْلة أمرائه الأمير عزّ الدين أبو بكر الدُّبيسي - وهو من أكابر أمرائه - ومن ذوي الرأي عنده - فدخل الدُّبيسي البلدَ ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشَّهيد وهو راكب، فسأل عن حاله فأُخبر به، وكان الشهيد واقفًا والدُّبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدُّبيسي نظر مُغْضَب ولم يكلِّمْه كلمة واحدة، فتأخَّر القهقرى، ودخل البلد، فأخرج خيامه وأمر بنصبها، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطِّين. قال: فلقد رأيتُ الفَرَّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبنًا ليقيموها، ونصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فأيّ حاجة لكم إلى الأملاك، فإن الإقطاعات تُغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرَّعية وتعدُّوا عليهم وغصَبوهم أملاكهم[2].

وهذا العدل والاهتمام بمحاربة الظلم كان من أهم أسباب تمكين عماد الدين زنكي في الأرض وانتصاراته العجيبة على محاربيه.

***

(١) هو السلطان عماد الدين بن قسيم الدولة زنكي توفي سنة (٥٤٠هـ).

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي ١/١٥٧.

من مواقف السلطان محمد بن ملكشاه رحمه الله[1]

قال المؤرخ أبو شامة المقدسي:

كان عادلاً حسن السيرة شجاعًا، وأطلق المكوس والضَّرائب في جميع البلاد. ومن عدله أنه اشترى عدة مماليك من بعض التجار، وأمر أن يوفى الثمن من عامل خُوزستان، فأوصل إليه البعض ومطل الباقي، فحضر التاجر مجلس الحكم، وأخذ غلام الحاكم، ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حاله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فعظم عليه، وضاق صدره، وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان ويلزم بمال التاجر. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم، ولو فعلته لاقتدى بي غيري، ولم يمتنع أحدٌ عن أداء الحق.

قال ابن الأثير: وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت الأتابكي، فإن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، ولما علم الأمراء وغيرهم من خُلُق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم، ومعاقبة من يفعله اقتدوا به فأمن الناس وظهر العدل[2].

***

(١) هو السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي توفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ١/١٠٧ - ١٠٨.

من مواقف السلطان نور الدين محمود

ذكر المؤرخ أبو شامة عن مقلَّد الدولعـي أنه قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي، خادم قبر شُعيب، على نبينا وعليـه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخـمسين، فقام رجلٌ وادَّعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من مـاله شيئًا بغيـر حق، قال: وأنا مطالبٌ لك بذلك. فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك، فإن كان لك بـينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أردُّ إليك ما يخـصني، فإني ما ورثت جمـيع ماله، كان هناك وارث غيـري. فمضى الرجل ليُحْضِر البيِّنَة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل[1].

ثم قال أبو شامة: أخـبرنا افتخار الدين عبد المطلب بـن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عـبد الغفور بن لقمان الكَرْدَري قاضي حلب غـلام قد جـعله لمجلس الحكم يُدعى سويدًا يُحْـضِر الخـصوم إلى مـجلس الحكم. فحضر بعضُ التجار، وادَّعى أن له على نور الدين دعوى. فقال الكردري لسويد المذكور: امـض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرِّفْـه أنه حضر شخصٌ يطلب حضوره. وكان نور الدين في الميدان، فجاء سويد إلى باب الميدان، فخرج إسـماعيل الخزَندار فوجده، فـتقدَّم سويد إليه وقال: قـد سيرني تاج الدين القاضي - وذكر أنه حضر تاجـر، وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين - وقد أنفذني تاج الدين وقـال لي كذا وكذا. فضـحك إسماعـيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكًا وقال له مستهزئًا: يقوم المولى [فقال: إلى أين؟ فقال: قد حضر سـويد غـلام تاج الدين الكردري وقـال: إن تاج الدين أرسله يـطلب المولى] إلى مجلس الحكم فأنكر نور الدين على إسماعيل اسـتهزاءه وقال: تستهزى بطلبى إلى مجلس الحكم! وقال نور الدين: يُحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعـالى ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٥١]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويدًا وقال له: امض إلى القاضي تاج الدين، وسلِّم

(١) كتاب الروضتين ١/ ٦٣.

عليه وقل له: إني جئتُ إلى هاهنا امـتثالاً لأمر الشَّرْع، وأحتـاج في الحضور إلى مجلسـه إلى سلوك هذه الأزقَّة وفيهـا الأطيان؛ وهذا وكيلي يسـمع الدعوى، وإن توجـهتْ علي يمين أحضـر إن شاء الله، قـال: فحـضر الوكـيل وسمع الدعـوى وتوجهت اليـمين، فقال الكردري: قـد توجهت اليمـين فليحضـر. فلما بلغ نور الدين ذلك، وعلم أنه لا مندوحـة عن حـضور مـجلسـه لليـمين استـدعى ذلك التاجر، وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه[1].

فهـذا الخبـران يدلان على اهتمـام السلطان نور الدين بالعدل وتجـرده من حظ النفس وعدم اعـتزازه بأبهة السلطان، فهـو لم يغضب على الخصوم حـينما ادعوا عليه، ولم يستنكف عن الحـضور بين يدي القاضي حينما قـامت عليه الدعوى بل استسلم لأمر الله تـعالى وأمر رسوله ﷺ، ولقد أعاد بذلك سيـرة الصحابة رضي الله عنهم، حيث كـان أمراؤهم يحضـرون مع خصومـهم عند القضـاة، ويقبلون بحكم القضاة عليهم.

وذكر المؤرخ أبو شامـة أيضًا من خبر مـقلَّد الدولعي قال: وحضر جـماعة من التجـار، وشكوا أن القراطيس[2] كان سـتون منها بديـنار، فصار سـبعةٌ وسـتون بدينار، وتزيد وتنقص، فيخسرون. فسأل الملكُ العادل عن كيفية الحال، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدوُّن القراطيس بالسـعر، تارةً سـتين بدينار، وتارةً سـبعـة وستـين بدينار، وأشار كل واحـد من الحـاضرين على نور الدين أن يضـرب الدينار باسـمه، وتكون المـعاملة بالدَّنانيـر الملكية، وتبطل القراطيس بالكليَّة. فسكت ساعة وقال: إذا ضربتُ الدينار وأبطلت المعاملة بالقـراطيس فكأنّي خربت بيوت الرعـية، فإن كل واحد من السـوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، أيش يعمل به، فيكون سببًا لخراب بيته. قال: فأي شفقة تكون أعظم من هذه على الرعية![3].

وهذا عدل من السلطان نور الدين ورحمة بالرعيـة، حيث إن الناس سيخسرون ويتضررون من تغيـير العملة، فرأى ارتكاب أخف الضررين بإبقاء الـعملة السابقة مع ما فيها من اختلاف يسير.

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٦٥ - ٦٦.

(٢) يعني العملة الورقية.

(٣) كتاب الروضتين ١/ ٦٥.

ومن أخبار السلطان نور الدين أنه كان في يوم من الأيام يلعب بالكرة في دمشق فرأى رجلاً من أتباعه يحدِّث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومةً حول بعض الأملاك، وطلب حضورهم إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: إنني قد جئت محاكمًا فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه، وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور. هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا، قال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لا حقَّ له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يظن أننى ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه.

قال ابن الأثير: تلك هي غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل[1].

وهكذا رأينا السلطان نور الدين يضرب مثلاً عاليًا في الخضوع لشريعة الله تعالى، وذلك بسرعة الحضور عند القاضي حينما دعاه، وقد توَّج هذه المأثرة العالية في العدل بمأثرة أخرى في الإحسان حينما تنازل عن الحق الذي خوصم فيه لمخاصمه مع ثبوت حقه فيه، وهذا مثل جيد في النزاهة والعفة.

ومن روائع السلطان نور الدين في القضاء وإجراء العدالة والإنصاف من الأمراء والقادة إنشاء «دار العدل» في دمشق، وكان سببَ إنشائها تزايدُ سلطان عدد من كبار الأمراء وتجاوزُ بعضهم حقوق بعض وعدمُ خضوع بعضهم لسلطة الحاكم الشرعي، فلما علم بذلك نور الدين أمر ببناء دار العدل.

وفي ذلك يقول المؤرخ أبو شامة: ومن عدله أن بنى دار العَدْل. قال ابنُ الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى دارًا للكشف، وسمَّاها دار العدل. وكان سببُ بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق، وأقام بها أمراؤه - وفيهم أسد الدين

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥، كتاب الروضتين ١/ ٣٨ - ٣٩.

شيركُوه، وهو أكبر أمير معه، وقد عَظُم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك فى الملك واقتنوا الأملاك وأكثروا وتعدَّى كل واحد منهم على من يجاوره فى قرية أو غيرها فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض ولم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه فأنهى الحالَ إلى نور الدين، فأمر حينئذ ببناء دار العدل، فلما سمع أسدُ الدين بذلك أحضَرَ نوابه جميعهم، وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسيي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنعُ على كمال الدين؟ ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنَّه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك، فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي طريق أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي. فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطُّوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهلُ عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يُساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم. فلما فرغت دارُ العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء، وبقي كذلك مدة فلم يحضُر عنده أحد يشكو من أسد الدين. فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحدًا يشكو من شيركُوه. فعرَّفه الحال، فسجَدَ شكرًا لله تعالى، وقال: الحمد لله الذي أصحابُنا ينصفونَ من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المَعْدلَة ما أحسنَها، وإلى هذه الهيبة ما أعظَمَها، وإلى هذه السياسة ما أسَدَّها، هذا مع أنه كان لا يريق دمًا، ولا يُبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقُه في عدله وحسنُ نيته[1].

وهكذا كان نور الدين موفقًا في إنشاء محكمة عليا يتولى هو فيها الحكم على أمرائه الذين قد لا يتمكن الحاكم الشرعي من السير في إجراءات الحكم عليها.

لقد كان التفكير في إنشاء دار العدل في غاية الروعة والسمو، حيث أصبح بإمكان نور الدين أن ينصف جميع المظلومين من ظالميهم وإن كانوا من أصحاب المناصب الكبيرة، وكان مجرد إنشاء هذه الدار كافيًا لإيقاف الظالمين من الولاة عن الظلم خشية أن يُستدعوا إلى تلك الدار فيوقفوا مع أصحاب الحقوق.

(١) كتاب الروضتين ٢/ ٤١ - ٤٢.

وهكذا يكون العدل الكامل، إن كمال العدل لا يكون بإنصاف المظلومين من الظالمين الضعفاء أو المتوسطين فقط، وإنما يكون بشمول العدالة والإنصاف من جميع الناس وإن كانوا من الكبراء المتجبرين.

وفي بيان عدل نور الدين ورفقه بالناس وتواضعه يقول أبو الفتح بَنْجير بن أبي الحسن بن بَنْجير الأَشْتَري - وكان ورَدَ دمشق، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة - قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرَّعية وكشف الظُّلامة، لا يطلب بذلك درهمًا ولا دينارًا ولا زيادة ترجعُ إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلبًا للثواب والزُّلْفَى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبَوَّاب حتى يصل إليه الضعيف والفقير، والقوي والغني، ويكلِّمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه، فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعًا في عدله، ويَعْجُز الخصم عن دفعها خوفًا من عدله، فيظهر الحقُّ عنده فَيُجْري الله على لسانه ما هو موافقٌ للشَّريعة، ويسأل العلماءَ والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محضُ الشَّريعة[1].

وهذا كلام بليغ في وصف عدل نور الدين وتواضعه، وقد أبان فيه أن الناس أصبحوا في ظلال عدله متساوين في المقدرة على الوصول إلى السلطان وأخذ حقوقهم إذا ثبتت لهم بيسر وسهولة، وأنه لم يعد هناك أقوياء وذوو جاه يستطيعون الوصول، وضعفاء مغمورون لا يستطيعون ذلك، وأن نور الدين لكمال عدله وورعه يُحضر العلماء معه في مجالس الحكم فيستفتيهم ويصححون له إذا أخطأ في حكم، وهذا نموذج رفيع في تطبيق الشريعة والحكم بها بين الناس.

ومن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الأثير عن رضيع الخاتون زوجة نور الدين قال: إنها قلَّت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرَّره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها [أي مخصصاتها المالية]، فلما قلت له ذلك تنكَّر واحمر وجهه،

(١) كتاب الروضتين ١/ ٦٢.

ثم قال: من أين أعطيها أما يكفيها مالُها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن!! إنما هي أموال المسلمين ومُرصدةٌ لمصالحهم ومعدَّة لفتْق - إن كان - من عدو الإسلام، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين مُلكًا قد وهبتها إياها فلتأخذها.

قال الرضيع: وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين ديناراً[1].

فهذا مثل من ورع السلطان نور الدين وعدله، فهو يُشَبَّه بعدله وورعه وزهده بأمير المؤمنين عمر بن العزيز رحمه الله تعالى، فقد غضب نور الدين لما سألته زوجته زيادةً فى مخصصاتها المالية، وتذكَّر حالاً نار جهنم، وهذا دليل على قوة إيمانه وعظمة خشيته من الله جل وعلا.

ولقد كان عظيم الاهتمام بالعدل وتمكين المظلومين من إنهاء قضاياهم إليه، ذكر ابن قاضي شهبة أنه كان يقول: حرام على كل من صحبني ولا يرفع إليَّ قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ، ويقول خادمه شاذ بخت الطواشى الذي كان أحدَ نوابه في حلب: كنت يومًا أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرًا عظيمًا، وجعل ينكش بإصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر، في عائلته أو في وفاء دينه؟! وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فأجبناه بعد تردد، فقال: والله إنى أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وإخواني، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله، فبالله عليكم - وإلا فخُبْزِي عليكم حرام - لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إليّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلِماني بها وارفعاها إلي[2].

ففي هذا الخبر نجد نور الدين يستغرق طويلاً في التفكير في أمور رعيته، ويخشى من الله جل وعلا أن يحاسبه على الظلم الذي يقع على أفراد رعيته من ولاته، وهذا يعني أنه قد تحرى العدل في حكمه المباشر، ولكنه يخشى أن لا

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥، كتاب الروضتين ١/ ٣٤ - ٣٥.
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٥٩.

يستقيم على ذلك ولاته، فيكون مشاركًا لهم فيما يقع منهم من ظلم، فكان لذلك همُّه الكبير واستغراقه في التفكير، وهذا يجعله في الطريق المستقيم نحو النجاة من عذاب الله تعالى والظفر بنعيمه.

وفي بيان أثر نور الدين في إقرار العدل يذكر المؤرخ ابن شامة نقلاً عن المؤرخ ابن الأثير أنه قال: ومن عدله أيضًا بعد موته - وهو من أعجب ما يُحكى - أن إنسانًا كان بدمشق غريبًا، استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله. فلما توفي تعدَّى بعضُ الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنصَف. فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شقَّ ثوبه ويقول: يا نور الدين، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك! وقصد تربة نور الدين، ومعه من الخَلق ما لا يُحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعيَّة وإلا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطَّيب قلبه ووهَبه شيئًا وأنصَفَه، فبكى أشدَّ من الأول. فقال له صلاح الدين: لِمَ تبكي؟ قال: أبكي على سلطانٍ عَدَل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلَّمناه[1].

وهذا موقف مؤثر في بيان حب الناس لنور الدين وتعلقهم به وتذكُّرهم لعدله وسياسته الرحيمة، فرحمه الله ما أعلى ذكره حيًا وما أبلغ أثر ميتًا!

***

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤١.

من مواقف السلطان عبد العزيز الحفصي رحمه الله تعالى

قال عنه الإمام شمس الدين السخاوي رحمه الله تعالى: عبد العزيز بن أحمد ابن محمد أبو فارس الهنتاني الحفصي ملك المغرب وصاحب تونس: قال شيخنا في «إنبائه»: قرأت بخط صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التونسيّ فيما كتب من سيرته أنه بلغه أنّه كان لا ينام من الليل إلا قليلاً بل حزر بقدر أربع ساعات لا تزيد قط وربما نقصت، وأنه ليس له شغل سوى النظر في مصالح ملكه، وأنه كان يؤذن بنفسه ويؤم بالناس في الجماعة ويكثر من الذكر ويقرب أهل الخير، وأنه أبطل كثيراً من التركات والمفاسد بتونس كالعيالة وهو مكان يباع فيه الخمر للفِرنج يتحصل منه شيء كثير في السنة ولأكثر الجيش عليه رواتب وعوضهم عنه، وكذا المُكوس[1] بحيث لم يكن ببلاده كلها شيء منها.

شُكِيَ إليه قلة القمح بالسوق فدعا تجاره فعرض عليهم قمحًا من عنده وقال أريد بيعه بدينار ونصف فاسترخصوه فأمر ببيعه بذلك السعر وأن لا يُشترى من غيره بأزيد فاحتاجوا لبيع ما عندهم كذلك فترك هو حينئذ البيع فبلغه أنهم زادوا قليلاً فأمر ببيع ما عنده بدينار فقط وتقدم إلى خازنه أنه إن وجد القمح في السوق لا يبيع شيئًا وإلا باع بدينار فاضطربوا إلى أن مشى الحال فكانت من أحسن الحِيَل في تمشية حال الناس.

إلى أن قال: حضر محاكمة مع منازع له في بستان إلى القاضي فحكم عليه فقبل الحكم وأنصف الغريم[2].

فهذا موقف جيد من السلطان عبد العزيز الحفصي، وذلك في الشعور بمسؤوليته عن الأمة التي تولى أمرها، فبعض التجار لا يهمهم إلا مصالحهم الخاصة ولا يبالون باحتكار الأطعمة الضرورية والزيادة في أثمانها، ولا يشعرون بمشاعر الفقراء

---

(١) أي: الضرائب.

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل/ ٤٢٨ عن «الضوء اللامع» للسخاوي.

الذين لا يستطيعون دفع الأثمان الغالية، فيكون ذلك سببًا في حرمانهم من العيش الضروري أو تحملهم الديون بسبب ذلك.

فلما قام بعض التجار باحتجاز ما عندهم من القمح ليكون ذلك سببًا في غلاء الأسعار قام ذلك السلطان بتصرف مضاد لهم، حيث أمر عملاءه من التجار بالبيع بثمن منخفض، فاضطروا إلى البيع بالثمن المعتاد، فقضى بذلك على تلك الأزمة التي سيتضرر منها جميع الفقراء.

وأخيرًا موقف في التواضع والعدل من السلطان الحفصي، حيث حضر إلى القاضي وجلس مع خصمه وأقر بالحق عند ثبوته عليه، وهذا دليل على قوة إيمانه ورجاحة عقله.

***

فهرس المصادر والمراجع

- الأحكام السلطانيـة والولايات الدينية/ لأبى الحـسن على بن محـمد الماوردي/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت.
- البداية والنهاية/ للحافظ أبى الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية.
- تاريخ الإسلام/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبى. الناشر: دار الكتاب العربى.
- تاريخ دمشق/ للحافظ علـى بن الحسن «ابن عساكر» الناشـر دار الفكر للطباعة والنشر.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) للمؤرخ محمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- تاريخ المدينة المنورة/ لأبي زيد عـمر بن شـبة النمـيري/ تحقـيق فهـيم محـمد شلتوت.
- جامـع العلوم والحكم/ للحافظ عـبد الرحـمن «ابن رجب» الناشـر: مؤسـسة الرسالة فى بيروت.
- الجامع لأحكام القـرآن / لأبى عبد الله محـمد بن أحمد الأنصـاري القرطبى/ الناشر: دار الكتاب العربي.
- الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ لعمر الخضر الملا/ الناشر: مؤسسة الرسالة.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ للحـافظ أبى نعيم الأصفهاني/ الناشر: مكتبة الخانجى ومطبعة السعادة فى مصر.
- الدرر الكامنة/ للحافظ أحـمد بن على الكناني «ابن حجر»/ الـناشر: دار الجيل فى بيروت.
- الزهد / للإمـام أحمـد بن حنبل الشـيبـاني/ الناشر: دار الـكتب العلميـة فى بيروت.

- سنن الترمذي/ للحافظ أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذي/ الناشر: المكتبة الإسلامية.
- سنن أبى داود/ للحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى/ الناشر: محمد على السيد - حمص.
- السنن الكبرى/ للحافظ أحمد بن الحسين البيهقى/ الناشر: دار صادر فى بيروت.
- سنن ابن ماجة/ للحافظ محمد بن يزيد القزوينى «ابن ماجة»/ الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- السير النبوية/ لأبى محمد عبد الملك بن هشام/ الناشر: مكتبة الجمهورية.
- سير أعلام النبلاء/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبي/ الناشر: مؤسسة الرسالة فى بيروت.
- سيرة عمر بن عبد العزيز/ لأبي محمد عبد الله بن عبد الحكم/ الناشر: دار العلم للملايين.
- سيرة عمر بن عبد العزيز/ للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي/ الناشر: دار الفكر.
- صحيح البخاري/ للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها فى القاهرة.
- صحيح مسلم/ للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى/ الناشر: دار إحياء التراث العربى.
- صفة الصفوة/ للحافظ أبي الفرج ابن الجوزي/ الناشر: دار المعرفة في بيروت.
- الطبقات الكبري/ للمؤرخ محمد بن سعد/ الناشر: دار صادر فى بيروت.
- فتوح البلدان/ لأبي العباس أحمد بن يحيى البلاذرى/ الناشر: مؤسسة المعارف فى بيروت.

- الكامل فى التـاريخ/ لأبي الحـسن على بن محـمد الـشيـبانى/ «ابن الأثيـر»/ الناشر: دار الكتاب العربي في بيروت.
- كتاب الروضتين فى أخـبار الدولتين/ لشهاب الدين عبد الرحـمن بن إسماعيل المقدسى «أبو شامة»/ الناشر: مؤسسة الرسالة.
- كنز العمال فـي سنن الأقوال والأفعال/ لعلاء الدين على المتـقي/الناشر: دائرة المعارف العثمانية فى حيدر آباد.
- مجمع الزوائد ومنبـع الفوائد/ للحافظ على بن أبى بكر الهيـثمى/ الناشر: دار الكتاب العربي فى بيروت.
- المختار المصون من أعـلام القرون/ للدكتور محمد بن حـسن بن عقيل موسى/ الناشر: دار الأندلس الخضراء فى جدة.
- المستدرك على الصـحيحين/ للحافظ أبي عبد الله الحاكم النـيسابورى/ الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية فى حلب.
- مـسند أحمـد بن حنبل/ للإمام أحـمد بن حـنبل الشيـبانى/ الناشـر: المكتب الإسلامى ودار صادر فى بيروت.
- منتخب كنز العـمال/ للعلامـة على المتقي الهندي/ الناشـر: المكتب الإسلامي ودار صادر فى بيروت.
- وفيات الأعيان/ لأبي العباسى أحـمد بن محمد بن خلكان/ الناشر: دار صادر فى بيروت.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
من توجيهات رسول الله ﷺ	٨
من مواقف أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضي الله عنه	١٢
من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه	١٤
من مواقف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه	٥٣
من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه	٥٦
من مواقف أمير المؤمنين عمران بن حصين رضي الله عنه	٦٤
من مواقف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه	٦٥
من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز	٦٦
من مواقف أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك	١٢٠
من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور	١٢١
من مواقف القاضي أبي يوسف	١٢٢
من مواقف القاضي حفص بن غياث	١٢٣
من مواقف أمير المؤمنين المأمون	١٢٦
من مواقف أمير المؤمنين المعتضد	١٢٧
من مواقف القاضي يوسف بن يعقوب	١٣٤
من مواقف الأمير أبى النجم بدر بن حسنويه	١٣٥
من مواقف الأمير هشام بن عبد الرحمن الأموي	١٣٦
من مواقف الأمير الحكم بن هشام الأموي	١٣٨
من مواقف الأمير المنصور بن أبى عامر	١٤٠
من مواقف السلطان عثمان الأيوبي	١٤٥

من مواقف الأمير قسيم الدولة ١٤٧
من مواقف السلطان عماد الدين زنكي ١٤٨
من مواقف السلطان محمد بن ملكشاه ١٤٩
من مواقف السلطان نور الدين محمود ١٥٠
من مواقف السلطان عبد العزيز الحفصي ١٥٧
فهرس المصادر والمراجع ١٥٩

***